رواية

"ومن الحب ما قتل"

# تشو دا شين

طبعة جديدة



# مشانق من فضة

ترجمة وتقديم

د. أحمد ظريف

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

بيت الحكمة

دار الأمان
الرباط

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

رواية

"ومن الحب ما قتل"

# تشو دا شين

طبعة جديدة



# مشانق من فضة

ترجمة وتقديم

د. أحمد ظريف

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

دار الأمان
الرباط

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

مشانق من فضة

تشو دا شين

ترجمة أحمد ظريف

## مقدمة المترجم

كاتب هذا العمل هو الأديب الصيني تشو دا شين، المولود عام 1952 وهو كاتب معاصر من مقاطعة خينان بالصين. التحق بجيش التحرير الشعبي الصيني عام 1970 وبدأ في نشر أعماله عام 1979. وانضم إلى اتحاد الكتاب الصينيين في عام 1987. وله الكثير من الأعمال الأدبية المتنوعة من الروايات الطويلة والقصص القصيرة التي حصدت الكثير من الجوائز الأدبية، فمثلا حصلت روايته «مشهد البحيرات وألوان الجبال» التي ترجمت للعربية بعنوان «رحلة الانتقام» على جائزة ماودوين للأدب وهي أرفع جائزة أدبية في الصين. كما حصل أيضا على جائزة أدب الشعب في دورتها الثالثة وجائزة أفضل قصة قصيرة على مستوى الصين، وتم تحويل العديد من أعماله إلى مسرحيات وأفلام ومسلسلات. كما ترجمت أعماله إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والكورية والتشيكية والعربية. ومن أعماله المترجمة، هذا العمل الذي بين أيدينا «مشانق من فضة» الذي تُرجم من قبل إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية.

والأديب تشو دا شين ليس غريبا على القارئ العربي فقد ترجمت له رواية «ترانيم الموت»، ورواية «رحلة الانتقام» ويتميز أسلوبه بالسلاسة والاقتراب من الواقع عبر الحوار غير المتكلف المفعم بالمشاعر الطبيعية وأيضا اختيار موضوعات نراها حولنا في حياتنا اليومية ويمكن بسهولة تخيل حدوثها، بل يمكن أن نكون قد مررنا بها سواء بصورة شخصية أو في الأشخاص المحيطين.

وتدور أحداث هذه القصة في زمن لم يحدده الكاتب بدقة، ولكن من خلال الإشارات والمسميات والجو العام للنص، يمكن أن نستنتج أنه يدور في خلال فترة المجتمع الإقطاعي في الصين، حيث تدور أحداث القصة في مدينة صغيرة، وعلى وجه التحديد في متجر متخصص في صنع الحلي الفضية، وفي منزل حاكم تلك المدينة، وتسرد لنا الأحداث العلاقة التي نشأت سرًّا بين ابن صاحب المتجر الشاب الفقير وزوجة ابن الحاكم الشابة الجميلة، وما الأسباب التي دفعت إلى تلك العلاقة الغريبة بين نقيضين، فالقصة بالأساس تحمل الكثير من المفاجآت في كل جزء منها، وتجلت موهبة الكاتب في وصف الصراع الدائر داخل كل بطل من أبطالها، ليظهر للقارئ أن الكل قد تعرض للظلم بشكل أو بآخر.

بطلة العمل هي الفتاة الشابة الجميلة بيلان، التي انتقلت من أسرة بسيطة لتصير زوجة ابن الحاكم متوقعة أن تعيش حياة رغدة هانئة، لتصطدم بالطبع الغريب لزوجها وبروده الذي لم تجد له تفسيرا في البداية، فيمكن لأي شخص أن يدرك حجم المرارة والأسى اللذيْن اعتملا في قلبها ومدى الذل والعار اللذيْن شعرت بهما وهي تسرد معاناتها مع زوجها في بدايات زواجهما، والصراع الذي يشتعل كل ليلة في غرفة نومهما ولا يدري به أي ممن يعيشون معهم في المنزل الكبير، حتى اضطرت للبحث عن الحب بين أدوات صناعة الفضة، واضطرت للسرقة لإشباع رغبات زوجها غريب الأطوار، لتلقى في النهاية مصيرها الذي يجعلنا نتساءل هل هي مذنبة أم ضحية؟

أما البطل الشاب الفقير شاو هينغ فهو من البداية للنهاية نموذج لشاب عادي بسيط حرّكته في البداية شهواته وتحكمت فيه بعدها عواطفه وانبهر بحب سيدة من النبيلات وانغمس فيه ليصير في النهاية ضحية أخرى من ضحايا الحب، وبدوره يثير في نفس القارئ نفس التساؤل السابق، هل هو مذنب أم ضحية؟

الضلع الثالث لمثلث أبطال العمل هو زوج بيلان، ابن الحاكم غريب الأطوار، ذو النزعات الغريبة، العاشق للحلي الفضية النسائية، الكاره لعشقه، المعذب بنزواته، تارة تحسبه شيطانا وتارة تراه مجرد مبتلى بما لا ذنب له فيه. تلك الشخصية تثير رغما عنا نفس التساؤل، هل هو مذنب أم ضحية؟

إذن فالقصة بأكملها يمكن أن نرى من خلالها الجوانب المختلفة لحياة البشر، وتعلمنا ألا نصدر أحكاما من جانب واحد، فكل فعل سيئ صدر من الأبطال الثلاثة كانت له أسبابه الخفية التي لا يراها من حولهم ولا يعرفها إلا صاحب الفعل نفسه. ويظل السؤال في النهاية معلقا متروكا لحكم القارئ، هل استحق الأبطال مصائرهم في النهاية نتيجة لما اقترفوه أم أنهم تعرضوا للظلم.

تلك القصة وعلى الرغم من أنها وقعت في زمن سابق ربما منذ مائة عام أو أكثر، فإنه لا يمكن اعتبارها قصة تاريخية بالمعنى المعروف، فهي لا تكشف الكثير من جوانب المجتمع في هذا العصر ولا تحكي أحداثا تاريخية حدثت بالفعل، لكنها استخدمت بعضا من جوانب المجتمع وقتها لتنسج الأحداث تاركة مجالا لتخيلات القارئ ومعارفه السابقة حول العصور القديمة. وتتميز القصة بقصرها، فعلى الرغم من الأحداث الدسمة بها، فإنها تعد قصة متوسطة الطول، ورغم هذا لا تشعر أبدا بجزء منقوص منها، وربما ذلك إثبات على براعة الكاتب وحسن تطويعه للغة، وقد تجلى ذلك في الحوار القصير المعبر الذي نراه وسط السرد، فلا ثرثرة زائدة عن الحد، بل جملًا قصيرة معبرة تصل للهدف بأقصر الطرق، حتى إنني فكرت في استخدام اللغة العامية لترجمة الحوار كمحاولة لتقريبه أكثر إلى واقعنا اليومي، ولكن عدلت عن ذلك في اللحظة الأخيرة تاركا تلك المحاولة لأعمال مترجمة قادمة.

هذا العمل أقدمه للقارئ العربي بوجه عام ليضاف إلى المكتبة العربية من الأدب الصيني المترجم والتي تزداد ثراءً يومًا بعد يوم، وأهديه بوجه خاص لدارسي الترجمة من الصينية إلى العربية ومحبيها في الوطن العربي بوجه خاص، فالعمل يجمع بين أساليب لغوية بسيطة ومعقدة، ويضم أيضًا جوانب متعددة من ثقافة المجتمع الصيني أعتقد أنها ستكون ذات فائدة كبيرة للمهتمين بهذا الشأن خاصة إذا سنحت فرصة المقابلة مع النسخة الصينية وهو ما يجعلني أتمنى أيضا إصدار طبعة باللغتين العربية والصينية.

د . أحمد ظريف

القاهرة، سبتمبر 2018

مسرح أحداث هذه الحكاية صار اليوم أطلالاً.

مثلها مثل العظام البيضاء الراقدة في القبور حينما كانت في الماضي عظام شابّ موفور القوة أو لفتاة نابضة بالحياة، كل الأطلال مرَّت بها أوقات ازدهار، وعندما وقفتُ فوق تلك الأطلال التي تراكم فوقها ريش الدجاج والورق الممزق وبقايا أوراق الخضراوات ناظرًا إلى فجر ذلك اليوم قبل 87 عامًا، كان أول ما رأيته هو شارع شيجوان المتعرِّج والمتدثر بضباب الفجر، ومعه يقبع حانوت صغير مميز لبيع الحُلِيِّ الفضية فوق ظهور تلك الحوائط الزرقاء وأسقف الملاط الأخضر، ورأيت لوحة الحانوت المكتوبة بخط أبيض على خلفية سوداء: «فو هينغ للحُلِيِّ الفضية»، بعدها سمعت صوت صرير باب يصدح في المكان.

# 1

عندما ذهب تشين شاو هينغ الصائغ في حانوت فو هينغ؛ لفتح الحانوت في صباح ذلك اليوم الربيعيِّ المغطَّى بضباب خفيف، لم يكن يعرف أن بداية أمر جلل ستطلُّ برأسها في ذلك اليوم؛ بل إن تلك البداية كانت تزحف نحوه في تؤدة؛ لقد كان نصف جسده الأعلى عاريًا كالعادة، وهو يجرجر حذاءه ويدعك بيد واحدة آثار النعاس من على عينيه التي لا يزال بها رمص، أمَّا يده الأخرى فيرفعها عاليًا وهو يمدُّ ذراعه ويتثاءب تثاؤبًا تتخلَّله آهة طويلة، أمَّا قدماه السوداوان الغليظتان فتتحرَّكان ناحية الباب، ثم يزيح مزلاج الباب الضخم المصنوع من خشب الجوز، وما إن فتح فرجة صغيرة من مصراعي الباب اللذين انفتحا بصرير غاضب، حتى اندفع هواء الصباح المنعش ليُحيط به، فعطس عطسة مدوِّية تردَّد صداها عدَّة مرَّات في الأزقَّة الصغيرة أمام الحانوت قبل أن يختفي بعيدًا. وفي ذلك الوقت حطَّ عصفور أسود الريش مدبَّب المنقار طويل الذيل على شجرة البانيان بالجهة المقابلة من الشارع، رفرف ذلك العصفور بجناحيه عدَّة مرَّات مصدرًا صوتًا، ثم صاح ثلاث صيحات متتاليات تجاهه، وكانت متحشرجة قصيرة حتى إن شاو هينغ لم يتمالك نفسه في أن يفكِّر: «هل حلَّ مرضٌ ما بهذا الطائر؟».

بدأ في استعدادات فتح الحانوت؛ فرصَّ مصباح إذابة الفضة، والصندوق الخشبي المملوء بجميع أشكال القوالب، ومنضدة الأدوات؛ التي رُصَّت عليها المطارق، والمخارز، والمبارد، والماسكات، وميزان الفضة، ومياه الشب الأبيض المستخدمة في تلميع الحُلِيِّ الفضية، ووضع الأريكتين الطويلتين المخصَّصتين لجلوس الزبائن.

«الطعام جاهز!»

تردَّد في جنبات الحانوت المُقَسَّم باستخدام عيدان الذرة الرفيعة صوتُ صانع الفضة المُسِنِّ تشين هينغ ليانغ، ففي صباح كل يوم ينشغل الأب المُسِنُّ بإعداد الطعام في الجهة الخلفية، ثم يأتي إلى الأمام كي يستعد لفتح الحانوت. لقد تقدّم في السنِّ، فلم يعد بإمكانه اليوم سوى المساعدة في إشعال النار وصنع الطعام، أو إزالة الزوائد من الحُلِيِّ التي انتُهِيَ من صنعها، وغير ذلك من الأعمال الخفيفة، لقد صار تشين شاو هينغ هو المسيطر على حانوت فو هينغ للحُلِيِّ الفضيَّة الشهير في مدينة نانيانغ.

دلف شاو هينغ إلى الغرفة لتناول الطعام، وجلس الأب وابنه متقابلين يلتهمان حساء الأرز بطحين البطاطا ويقضمان المانتو[1]، وعلى الرغم من أنهما يتعاملان مع الفضة اللامعة يوميًّا، فإن طعامهما كان دائمًا أسود اللون. فالعمل في الفضة مربح لكن الضرائب مرتفعة، بالإضافة إلى رغبتيهما في ادِّخار بعض المال لتوسعة الحانوت؛ لذا كان من الطبيعي أن يشقى الفم قليلاً.

لم يكن شاو هينغ قد انتهى من تناول طبقه الأخير بعدُ عندما صدح بالخارج صوت أقدام، عندها علم بقدوم أول زبون؛ لذا ابتلع على عجل بضع لقيمات أخرى، ثم ألقى بطبقه والتقط المريلة الزرقاء القديمة المخصَّصة للعمل وربطها على خصره.

«أريد أن أصنع ماسكة شعر كبيرة» كانت الداخلة سيدة عجوز ذات قدم صغيرة، ولقد تذكَّرها شاو هينغ فهي زوجة التاجر خاو الذي يعمل في تجارة التبغ، فانحنى لها احترامًا وهو يقول: «تفضلي بالجلوس يا سيدتي، سأبدأ حالًا في صنعها».

أشعل مصباح إذابة الفضة، وعندما نفخ بمهارة فيه باستخدام قصبة صغيرة أطبق عليها بفمه حتى صارت نار المصباح خيطًا رفيعًا، عندها دلف إلى المكان عدَّة أشخاص آخرين راغبين في صناعة حُلِيٍّ فضية، وجلسوا على الأريكة الطويلة، لقد عملت عائلة تشين في صناعة الفضة لعدَّة أجيال، وذاع صيت مهارتها في صنعها؛ لذلك كان الزبائن لا ينقطعون عن الحانوت كل يوم ويصطفون في طابور طويل.

ويمكن بوجه عام تقسيم الحُلِيِّ الفضية التي تصنعها عائلة تشين إلى نوعين رئيسين؛ الأول: هو حُلِيُّ الأطفال، والثاني: هو

حُلِيُّ النساء. أمَّا حُلِيُّ الأطفال فتشمل رأس النمر، ونقود الأسد، والرهبان الثمانية، وزينة القبعات، وغيرها، وهناك أيضًا الأجراس الصغيرة ذات الأشكال الطولية أو الأشبه بالساعة أو السلة، تلك الأجراس تُربط على رؤوس الأطفال لتصدر أصواتًا مسلية كلما اهتزَّت، أمَّا حُلِيُّ النساء فيمكن تقسيمها إلى ثمانية أنواع؛ النوع الأول: هو التيجان الفضية التي توضع على الرأس، وترصَّع بأشكال التنين والعنقاء أو الزهور أو الحشرات والأسماك وغيرها من الأشياء، وهي جميلة أنيقة لامعة، وهي من أرقى أنواع الحُلِيِّ التي ترتديها الفتيات في أعراسهن، أما النوع الثاني: فهو مشابك الشعر التي تغرس أعلاه أو تربط في الضفائر، والنوع الثالث: هو الأقراط الفضية، وهي ذات أنواع كثيرة، أجملها التي تتخذ أشكال الحيوانات، والنوع الرابع: هو العقود الفضية؛ وتشمل سلاسل زهرة البرقوق، وسلاسل الحشرة الطويلة، وسلاسل الزهور رباعية البتلات وغيرها، والنوع الخامس: هو الأساور الفضية؛ سواء التي تلبس في اليد أو في القدم، وتشمل أساور رأس التنين، وأساور عقد البامبو، وأساور الزهور المطرزة، والأساور الملساء، وأساور الأسلاك الملتفَّة، والأساور على شكل فصوص الثوم، وغيرها من بضعة عشر نوعًا، أما النوع السادس: فهو الخواتم الفضية؛ التي تتَّخذ أشكالَ مختلَفِ أنواع الزهور والطيور والحشرات والأسماك والمغطاة بألوان زرقاء وخضراء وغيرها من الألوان؛ مما يكسبها منظرًا رائعًا يخلب الألباب، أما النوع السابع: فهو الأزرار الفضية، وتنقسم إلى تلك التي على شكل زهرة اللوتس، وزهرة البرقوق، وزهرة الخوخ، وزهرة الكرز، واليقطين، وغيرها من الأشكال، والنوع الثامن والأخير: فهو زينات الأحذية؛ التي تصنع خصيصًا للنسوة العجائز أو المتوفيات، الفردة اليسرى على شكل ضفدع، واليمنى على شكل فراشة؛ ويرمزان إلى العمر الطويل والصعود إلى السماء.

انتهى شاو هينغ من صهر الفضة، ثم التقط من بين القوالب قالبًا فخاريًّا سميكًا، وما إن همَّ برفع مطرقته لكسره، حتى تطايرت رائحة عطرة خفيفة متسللة إلى أنفه، فسحب نفسًا عميقًا وعلى الفور عرف أن بيلان زوجة الابن الأكبر في «مينغ ديفو»[1] قد وصلت، ومينغ ديفو هو السكن الخاص بـ«لو جينغ رين» حاكم نانيانغ، ولقد اشتُهر السيد «لو» في كل أنحاء مقاطعة خينان بأخلاقه العالية وسلوكه الراقي وسياسته النزيهة؛ لذا خلع الحاكم العسكري لمقاطعة هونان على منزله هذا اللقب تكريمًا له، أمَّا زوجة ابنه الأكبر فقد اعتادت التردُّد على الحانوت لصناعة الحُلِيِّ الفضية؛ لذا صارت رائحتها مألوفة لأنف شاو هينغ، وعندما رفع رأسه ناظرًا إليها، وجد بالفعل السيدة بيلان الشابة الأنيقة واقفة عند الباب.

قال شاو هينغ: «هل أتت السيدة لتجربة أساور القدم؟ لقد قمت بالعمل لوقت إضافي ليلة أمس حتى انتهيت منها، تفضلي بالدخول لتجربتها». ثم قام على عجل من مكانه ليفسح الطريق، حينها لاحظ شحوب وجهها وغياب شبح الابتسامة التي اتسمت بها عيناها.

لم ترد عليه السيدة بيلان؛ بل حرَّكت خطواتها لتدخل في اتجاه الحجرة الداخلية؛ فقد كان حانوت فو هينغ للحُلِيِّ الفضية دائمًا ما يجعل السيدات يجرِّبن ارتداء أساور القدم في الحجرة الداخلية؛ وذلك لأن العرف هنا ألَّا تخلع النساء أحذيتهن كاشفات أقدامهن أمام الرجال. وبالطبع كان صانع الفضة يسبقهن للدخول؛ لكي يعرف ما إذا كان المقاس مناسبًا أم لا؟ لذا كانت العلاقة بين النسوة والصانع في تلك اللحظة أشبه بالعلاقة بين المريض والطبيب، فلا يجدن غضاضة في قيام صانع الفضة بخلع أحذيتهن وتحسُّس أقدامهن.

جلست السيدة بيلان على تلك الأريكة الطويلة التي يجلس عليها شاو هينغ عادة لتناول الطعام، ومدَّت قدميها اللتين تزيَّنتا بحذاء ورديٍّ إلى الأمام قليلاً، فجلس شاو هينغ القرفصاء أمام قدميها ممسكًا بيديه زوجًا من أساور الأقدام، حينها ازدادت الرائحة العطرة المتسلِّلة إلى أنفه، فلم يتمالك نفسه من سحب نفس عميق، فزحفت الرائحة عبر أنفه كحشرة صغيرة مشعرة حتى وصلت إلى رئتيه، وقتها شعر بهزَّة في روحه، وبشيء يجتاحه من النشوة التي لا تفسير لها؛ لكنه على الرغم من ذلك مدَّ يده كالمعتاد ورفع قدمها اليسرى وخلع منها الحذاء ثم وضعها على ركبته، وعندما خلع الحذاء لم تنبعث منها تلك الرائحة الغريبة التي تنبعث عادة من أرجل الناس العاديين حين يخلعون أحذيتهم؛ بل انتشرت رائحة عطرة أشبه برائحة الأقحوان المجفَّف، ولقد خمن أن السيدة بيلان قد وضعت في حذائها بعضًا من الأقحوان المجفَّف، أو أن نوعًا ما من العطور قد حُشِيَ في بطانة الحذاء، إلا أنه لم يكن يملك ترف محاولة البحث عن مصدر الرائحة؛ بل كان منتبهًا فقط ليديه؛

فقد كان إحساس ملامسة يديه لمشط قدمها وكاحلها الناعمين إحساسًا لا يُوصف يُدغدغ القلب ويخدره، لقد شعر برغبة تندلع في أعماق قلبه وتستعر بسرعة البرق، فارتفع بلمساته لأعلى كاحلها؛ ليتحسَّس ساقها الملفوفة في سروالها. عندها عضَّ بقسوة على طرف لسانه فتلاشت مؤقتًا تلك الرغبة المحمومة تحت وطأة الألم الحادِّ، وقرَّر أن يُصَفِّيَ قلبه، وأمسك بسِوَار قدم من أسلاك مضفَّرة وهمَّ بإلباسها في ساق السيدة اليسرى، ومن أجل تسهيل ارتداء السِّوَار رَفَعَ ساق سروالها قليلاً إلى الأعلى، وما إن فعل حتى ألجمت الدهشة لسانه، وجحظت عيناه، وصدرت رغمًا عنه آهة تعجُّب، لقد كان على ساقها أعلى كاحلها بقليل خطٌّ دمويٌّ عميق طويل، وبدا أن آثار الدماء عليه لم يمضِ عليها وقت طويل، في الغالب ظهرت في الليلة الماضية؛ فقد كانت آثار الدماء لا تزال طازجة حمراء قانية، ولقد قدَّر أن تلك الآثار إمَّا بسبب يد ذات أظفار طويلة أو بسبب خدش من شيء ما. تلك الآثار الدموية لو ظهرت على ساق سوداء غليظة مثل ساق شاو هينغ فإنها لن تكون بالأمر الجلل؛ لكن ظهورها على تلك الساق الناعمة البيضاء هو أمر يوجع القلب ويدعو إلى الدهشة، أما السيدة بيلان فلم تعر دهشته أي اهتمام؛ بل ظلَّت جالسة في مكانها في هدوء وإن عَرَت جسدَها رعشةٌ خفيفة.

كان مقاس السِّوَار ملائمًا تمامًا للقدم اليسري، ولقد جعلت هيئة السيدة بيلان الباردة الصارمة شاو هينغ لا يجرؤ على تضييع الوقت أكثر من ذلك؛ لذا جرَّب على عجل سِوَار القدم اليمنى، وعند رفع ساق سروالها كما فعل في القدم اليسرى منذ قليل جحظت عيناه دهشة مرَّة أخرى، ففوق كاحل قدم السيدة بيلان اليمنى كان هناك أيضًا جرح غائر دامٍ، كان موضع الجرحين متماثلاً تمامًا، وشكلهما متماثلًا أيضًا، وبدا أن طريقة إحداث الجرحين متماثلة أيضًا. فلو قلنا: إن شاو هينغ قد أصابته الدهشة منذ قليل. فإنه في تلك اللحظة قد تزلزل تمامًا، فأنَّى لجرح أن يحدث بالصدفة بذلك التماثل؟ لكنه بالطبع لم يجرؤ على فتح فمه بالسؤال؛ بل زاد من حذره وهو يجرِّب الأساور لها خشية أن يُؤلمها، ولحسن الحظِّ كان مقاس القدم اليمنى مناسبًا أيضًا.

«المقاس مناسب يا سيدتي، هل ستظلِّين مرتدية إيَّاهما، أم أخلعهما وأغلفهما لترتديهما لاحقًا؟» رفع شاو هينغ وجهه سائلاً إيَّاها، وفي تلك اللحظة فقط أدرك أن هناك هالاتٍ سوداء حول عينيها.

«اخلعهما وغلِّفهما وأرسلهما إليَّ بعد الغداء». كان صوت بيلان غير مبالٍ وإن اعترته رعشة خفيفة، ثم مدَّت يدها بقطعة فضة تجاه شاو هينغ.

«لقد سدَّدت السيدة ثمن الأساور من قبلُ، هل ترغبين في صنع حُلِيٍّ أخرى؟»

«لا أرغب». كان صوتها خفيضًا، أما نظراتها فقد صارت غريبة فجأة: «أريد منك أن تشتري لي شيئًا».

«ما هو؟» شعر بقلبه يختلج؛ فقد كان يرغب في فعل أي شيء لتلك المرأة الجميلة.

«زرنيخ» كان صوتها خافتًا للغاية، أمَّا عيناها فقد صارتا لامعتين بشكل غريب، وركزت نظرها عليه دون أن ترمش ولو مرَّة، أمَّا هو فقد مال جسده إلى اليسار كما لو كان يتفادى ضربة من صخرة. «لماذا لا تشترينه بنفسك؟» خفض صوته هو أيضًا بتلقائية.

«لا أستطيع».

«أنا...».

«إن كنتَ لا ترغب في المساعدة فانسَ الأمر». ثم سحبت يدها الممدودة بالفضة «كنتُ أعتقد أن شخصًا أمينًا مثلك سيرغب في تقديم المساعدة».

«أعطني إيَّاها» وقبل أن يُنهي كلامه كان قد مدَّ يده تجاهها.

في الوقت المتبقِّي من ظهيرة ذلك اليوم لم يُكمل شاو هينغ أيَّ عمل يذكر، لقد كان ذهنه مشغولاً بتلك الكلمة «الزرنيخ»، حتى إن المطرقة في يده كانت تطرق بعشوائيَّة، بالطبع لم يسمع الزبائن أي شيء غريب في أصوات تلك المطرقة، إلا أنها لم

تكن لتخفى على أذن الصانع المسنِّ المدرَّبة، وعلى الرغم من أنه ظلَّ جالسًا في مكانه بجوار ابنه لا ينطق بكلمة مستمرًّا في نزع الزوائد عن الحُلِيِّ الفضية دون أن يحوِّل عينيه عنها، فإن قلبه أدرك أن شيئًا ما قد حدث؛ لذلك عندما همَّ الابن بالخروج بعد تناول الغداء فتح الباب وسأله: «إلى أين أنت ذاهب وماذا ستفعل؟»

«أنا ذاهب لإيصال الأساور إلى السيدة بيلان».

«وماذا أيضًا؟»

«لا شيء».

«حقًّا ليس هناك شيء آخر؟». قالها وقد انغرزت عيناه مثل المخرز في وجه ابنه.

«لقد طلبت منِّي السيدة بيلان أن أساعدها على أمر ما». قالها شاو هينغ وقد أشاح بوجهه بشكل غير طبيعي.

«أيُّ مساعدة تلك؟».

«سأشتري لها دواء». وبدا عليه الضيق وهو يقول: «لماذا تسأل كلَّ تلك الأسئلة؟ حقًّا إن الشخص حين يكبر في السن يصير...».

«أيُّ دواء؟».

«زرنيخ».

«هل وافقتَ؟».

«نعم».

«هل تعلم ما الزرنيخ؟».

«سمٌّ».

«ما الذي ستفعله بالسمِّ؟».

«لا أعلم، ربما ستقتل بعض الفئران».

«لا تعلم وعلى الرغم من ذلك تساعدها على شرائه؟ ماذا لو استخدمته لتسمم شخصا ما؟ ألن تصير شريكًا في الجريمة؟ هل تريد التسبُّب في إغلاق حانوت فو هينغ للحُلِيِّ الفضية؟ هل ترغب في أن تطير رأسك؟».

انتفض جسد شاو هينغ فزعًا، ولفت وجهه ناظرًا إلى أبيه وقد التمعت في عينيه نظرة ضائعة وقال: «لكنَّني وافقتُها، بالإضافة إلى ذلك، هل يمكن لامرأة مثلها أن...».

«إذن فلتعطها هذا». قالها المُسِنُّ وهو يميل بجسده ويقبض على حفنة من التراب من أسفل الحائط، ولفَّها كيفما اتُّفق في ورقة من التي يلفُّ فيها الحُلِيَّ الفضية ثم دسَّها في يد شاو هينغ.

«هذا...».

«بهذا سنعرف ما الذي تنوي عمله، هيا اذهب».

وهكذا خرج شاو هينغ متردِّدًا من الباب، وبعد فترة عاد إلى الغرفة شارد الذهن.

«هل أعطيتَها إيَّاها؟».

هزَّ رأسه بنعم، ثم قال بصوت يملؤه الندم واللوم: «ستعرف أنَّني خدعتها حين تكتشف أن ذلك الشيء لا يقتل الفئران، ولن تأتي بعد ذلك لكي أصنع لها حُلِيًّا فضية».

«لن تموت جوعًا دون تلك الزبونة». وبعد أن ألقى الأب بكلمته تلك واستدار بجسده مغادرًا، عاد ثانية وسأله: «هل استطعتَ معرفة ماذا ستفعل بالزرنيخ؟».

«سألتُها فقالت لي: ليس من شأنك».

بدأ الأب والابن أعمال ما بعد الغداء؛ لكنَّ ذهن شاو هينغ لم يكن منتبهًا للعمل، فكان كلُّ ما يفعله يتمُّ بشكل غير دقيق، كما ازدادت أخطاؤه، فقرط على شكل فراشة احتاج منه خمس محاولات حتى نجح في إتمامه؛ بل إنه كاد يحرق يده وهو يصهر الفضة.

وأخيرًا حلَّ الظلام، ورحل آخر الزبائن، ودخل الصائغ المسنُّ إلى الجهة الخلفية لصنع الطعام تاركًا الابن وحيدًا، فأشعل الشموع وبدأ في جمع أدوات العمل؛ وفي تلك اللحظة انفتح باب الحانوت بدفعة مفاجئة، وظهرت خلفه خادمة السيدة بيلان، وهي فتاة ضئيلة الجسد وقفت لاهثة على الباب؛ أُصيب شاو هينغ بالهلع، ونظر إليها نظرة واحدة خفض بعدها رأسه على عجل، لقد توقَّع أن يتلقَّى توبيخًا؛ لكنَّ الخادمة قالت جملة واحدة بصوت هادئ خفيض: «أيها الصائغ الصغير، السيدة تطلب منك الذهاب إليها الآن».

ردَّ شاو هينغ عليها بهمهمة غير مفهومة، وعندما وصل الصائغ المسنُّ إلى الباب بعد أن سمع تلك الأصوات، ألقى شاو هينغ على والده نظرة مليئة باللوم، ثم نقل خطواته إلى الخارج كمُدانٍ يساق إلى ساحة الإعدام.

«تذكَّر، هذا الدواء اشتريتَه من حانوت الأدوية الخاص بعائلة جينغ». ألقى الصائغ المسنُّ بجملته تلك محدِّثًا خيال ابنه المبتعد عنه.

تبع شاو هينغ خطوات الخادمة حتى دخل إلى منزل السيدة بيلان في مينغ ديفو، وعندما رآها جالسة على كرسيها محدِّقة بعينيها اللامعتين إليه حتى هبت رياح عاصفة في عقله، كان يرغب في أن يشرح ويفسر الأمر قبل أن تبدأ في توبيخه، فقال متلعثمًا: «هذا الدواء اشتريتُه من حانوت عائلة جينغ». إلا أنها أشاحت بيدها، فأمسك شاو هينغ لسانه فزعًا، ولاحظ أن الخادمة خرجت وأغلقت الباب خلفها، ولم يبقَ في الغرفة سواه هو والسيدة بيلان، فازداد قلبه اضطرابًا، ورأى السيدة بيلان تتوجَّه نحوه، فارتفعت يداه بتلقائية لتحمي وجهه. «هيا اضربي، اضربي، فعلى أي حال أنا لا أُلام على هذا الأمر». هكذا صاح في سرِّه، وقد استعدَّ تمامًا للصفعة التي سيتلقَّاها منها؛ لكن تلك اليد نزلت على كتفه، لم يكن ضربًا بل كان تربيتًا، تربيتًا رقيقًا للغاية، وفي الوقت نفسه سمع صوتًا خفيضًا مرتعشًا يحمل في طيَّاته تنهيدة يقول: «شكرًا لك، شكرًا لك أن جعلتني أعيش مرَّة أخرى».

تسمَّر شاو هينغ في مكانه، ثم خفض أولاً يديه اللتين تحميان وجهه، ثم رفع عينيه ونظر إلى بيلان بدهشة وحيرة، نظر إلى عينيها الكريستاليتين اللامعتين.

«هل تعلم لماذا طلبتُ منك شراء الزرنيخ؟ للقتل، كنتُ أرغب في قتله وقتل نفسي؛ لذا بعد الغداء وضعتُ الزرنيخ الذي اشتريتَه لي في أطباق الشاي الخاصة بي وبه، أنا أرغب في الموت، أريد أن أموت أنا وهو معًا، لكنَّني لم أتوقَّع أن أشعر بكل هذا الندم بعد أن شربت الشاي وعرفت أنَّني سأموت؛ في تلك اللحظة تذكَّرت أبي وأمي، لقد كبرا في السن، بعد أن عانيا كثيرًا؛ لكي يربياني، لكنَّني سأموت في الوقت الذي يحتاجان فيه إليَّ كي أرعاهما، وتذكَّرتُ أيضًا أخي الصغير، ما زال يدرس في مدرسة عائلة هان الخاصة، ويعتمد عليَّ في توفير كل مصاريف دراسته، فكيف يمكنه الاستمرار في الدارسة بعد موتي؟

إنني ما زلت في الخامسة والعشرين من العمر، ولم أفعل أيَّ شيء منذ أن جئتُ هذا العالم، لم أنجب حتى طفلًا أو طفلة، ستكون خسارة كبيرة إذا متُّ في تلك اللحظة، خاصة حين فكَّرت أنَّني سأموت مع هذا الكلب، وسأدفن معه، سألتصق به حتى في العالم الآخر، عندها وصل ندمي وخوفي إلى مداهما، وكرهت نفسي لقلَّة صبري الذي جعلني أرتكب تلك الحماقة حتى أموت معه، لقد وصل غضبي وقتها إلى أن صفعتُ وجهي، لكنَّني لم أتوقَّع أن هذا الزرنيخ بلا مفعول، وعندما تأكَّدت من ذلك وصار باستطاعتي أن أعيش ثانية في هذا العالم صارت سعادتي لا توصف، حقًّا شكرًا لك أن جعلتني أعيش ثانية،

بالطبع هو أيضًا لا يزال على قيد الحياة، لندعه يعش، لندعه يعش». استمع شاو هينغ إلى كلامها وقد فغر فاه.

«أريد أن أردَّ الجميل إليك». صار صوت بيلان خفيضًا للغاية، وظهرت على وجهها تعبيرات مجنونة: «أريد أن أهديك شيئًا ما، شيئًا ما»، قالتها واللهب يتراقص في عينيها ورأى شفتيها ترتعشان، غدًا في المساء تعالَ متسلِّلًا إلى الحديقة الخلفية، ادخل من الباب الشرقي وسأعطيك ذلك الشيء، هل فهمت؟ لا تخبر أحدًا.

وما إن همَّ شاو هينغ بفتح فمه للردِّ عليها حتى تناهى إلى مسامعهما صوت أقدام خارج الباب، عندها تحوَّلت نظراتها فجأة وصارت صارمة قاسية ثم أتبعتها قائلة بلهجة باردة: «إن الخاتم الذي أحضرته لا بأس به، سندفع ثمنه فيما بعد، هيا اذهب». ثم غمزت له بعينها في إشارة كي يرحل بسرعة، وتقدَّمت إلى الأمام وفتحت الباب، وأشاحت له بيدها.

خرج شاو هينغ من غرفة بيلان ثم من باب منزل مينغ ديفو مضطرب الفِكر، ثم سار حتى دخل منزله وهو لا يزال شارد الذهن، وكان الأب لا يزال مستيقظًا، ولم يتحدَّث؛ بل اكتفى بالنظر إليه.

أطلق شاو هينغ تنهيدة حارَّة وجلس على سريره، وبدأ في سرد كل ما حدث لوالده.

«نحن لا نحتاج لأشيائها». قالها الأب بصوت قاسٍ كالحديد.

لم ينطق شاو هينغ بكلمة، كان خيال بيلان لا يزال يتراقص أمام عينيه؛ بينما رائحتها العطرة تملأ أنفه.

«ابْتَعِدْ عن تلك المرأة». سقط صوت الصائغ المسنِّ كالحجر على رأس شاو هينغ، ومع ذلك فلم يُعره اهتمامًا؛ بل خلع ملابسه على عجل، واندس تحت الغطاء وغطَّى به رأسه؛ فقد كان يرغب في التفكير في تلك الأحداث المتتالية التي حدثت اليوم، وأخيرًا فكَّر في قول بيلان: «أرغب في قتل نفسي وقتله» مَنْ هو؟

مَنْ هو؟

شعر بحكَّة في رأسه من كثرة التفكير، وبالتدريج غرق في النعاس وسط قلقه العميق، وفي عالم الأحلام رأى طائرًا ضخمًا، جناحاه أسودان كالحبر يضربانه ببطء بداية من رأسه.

---

1- المانتو: نوع من الخبز الصيني يصنع من دقيق القمح ويطهى على البخار.

1- مينغ ديفو تعني منزل الشرف والأخلاق، وفي القصة تشير أحيانًا إلى منزل السيد لو، وأحيانًا تشير مباشرة إلى مَن يسكنون في المنزل.

# 2

وخلال نهار اليوم التالي بكامله وعلى الرغم من انهماك شاو هينغ في صنع الحُلِيِّ الفضية فإن عقله كان منشغلاً بذلك السؤال: هل يذهب في المساء إلى الحديقة الخلفية لمنزل مينغ ديفو ليأخذ ذلك الشيء الذي ستعطيه إيّاه السيدة بيلان، أم لا يذهب كما أمره والده؟ لكن هذا سيمثِّل إساءة لبيلان، فالسيدة لا تضمر شرًّا، يمكنك ألا تقبل هديتها؛ لكن على الأقل لا يمكنك عدم الذهاب. ستذهب؟ لكن إذا رآك أحدهم وأنت تقابل سيدة تحت جُنح الليل فلن يكون الأمر جيِّدًا؛ لكن بيلان هي التي طلبت مني الذهاب، فلو قابلتُ أحدَهم يمكنني أن أشرح له قائلاً: إنني ذهبت لتوصيل بعض الحُلِيِّ الفضية، بالإضافة إلى أنه ليس من المؤكَّد أن أصادف أحدًا في الليل.

بعد العشاء ألقى بطبقه ونظر إلى والده ثم قال متلجلجًا: سأذهب لأرى.

«ما الذي ستراه؟» حدجه الأب بنظرة وأردف: «مهما كان ما ستعطيك إيَّاه جيِّدًا فنحن لا نريده».

«حتى لو كنا لا نريده وجب عليَّ الذهاب لإخبارها بذلك، على الأقل من باب الأدب».

«أيُّ أدب مع امرأة تشتري السمَّ لقتل أحدهم؟».

«لكنها لم تقتل في النهاية».

ألجم الغضب لسان الصائغ المسنِّ فغمغم ببضع كلمات ثم صمت تمامًا وركل مقعدًا صغيرًا؛ ليجلس تحت المصباح وأمسك مبردًا، وبدأ في إزالة الزوائد عن طوق رقبة المبرد، فسمع صوت ابنه وهو يركل الباب بقدمه ويغادر مبتعدًا، لم يرفع رأسه لينظر إليه؛ بل طرق الطوق بالمبرد بعنف وأطلق سبة غاضبة: «شيء قذر، أعمى البصيرة».

استمرَّ الصائغ المسنُّ في تشذيب الحُلِيِّ الفضية حتى ضاق صدره فألقى بالمبرد بعنف وجلس هناك يدخن التبغ؛ بينما انتصبت أذناه لسماع أي صوت قادم من خارج الباب.

لم يعرف كم مرَّ من الوقت حتى سمع صوت أقدام ابنه يترامى من خلف الباب، فهبَّ واقفًا، وما إن خطا الابن بقدمه إلى الداخل حتى كانت عينا والده في استقباله.

«ما الذي أعطتك إيَّاه؟»

«لا شيء» قالها الصائغ الصغير بتعب.

«لا شيء؟ حقًّا لا شيء؟ هل أعطتك شيئًا وأنت رفضته أم...؟».

«لم تعطني شيئًا؛ لقد دخلتُ من الباب الشرقي إلى الحديقة الخلفية فرأيتُها واقفة في ظلِّ شجرة فاكهة بيضاء، ونادتني بصوت خفيض كي أذهب إليها، فسرتُ حتى وقفتُ بجوارها، وكانت الحديقة هادئة للغاية، فسمعتُ صوت أنفاسها المضطربة، فقلتُ لها: يا سيدتي لا داعي إلى أن تعطيني أي شيء، لدينا كلَّ ما نحتاج إليه».

«وماذا قالت؟».

«لم تنطق بكلمة، لقد صمتت لفترة طويلة، فشعرتُ بالعجب، وأخيرًا نطقت وقالت: أيها الصائغ الصغير، هل تثق في العبارة القائلة: إن السماء ترى كلَّ ما يفعله البشر؟» فقلت: «إنَّني لا أعرف، لم أفكِّر في الأمر من قبلُ».

«وماذا قالت بعدها؟».

«قالت: أيها الصائغ الصغير هل تعتقد أن الشخص إذا أراد شيئًا ما فعليه طلبه؟» فقلت: «إنِّني لن أستطيع شرح الأمر

بوضوح». ثم قلتُ: «إن الشخص لو أراد شيئًا ما ولم يسعَ خلفه فلن يكون هذا بالأمر المفيد».

قال الأب: «ثم؟».

«بعدها صمتت لفترة طويلة ثم قالت: أيها الصائغ الصغير، ماذا لو كان باستطاعة المرء الحصول على ذلك الشيء الذي يريده؛ لكن العالم لا يسمح له بالحصول عليه، فما العمل؟» فقلت: «إذن لا يأخذه وإلا سيقول الآخرون: إنه سرقه».

قال الأب: «ماذا بعد؟».

بعدها تنهَّدت وحنت رأسها أسفل جذع الشجرة، وأظن أنَّني رأيتُها تضرب رأسها في الجذع حتى إن أوراق الشجر بالأعلى اهتزَّت قليلاً.

وبعد فترة صمتٍ قليلة قالت: «أيها الصائغ الصغير، اذهب». فاستدرتُ متوجهًا ناحية الباب الشرقي، وما إن قاربتُ على الوصول إليه حتى لحقتني بخطوات رشيقة وقالت لي بصوت خفيض قلِق: يا لغبائي! نسيت إحضار ذلك الشيء الذي سأعطيك إيَّاه، من الأفضل أن تأتي ثانية مساء غد».

نظر الصائغ المسنُّ إلى ابنه بحيرة، ثم وجَّه نظراته الحائرة نحو زاوية الحائط، وصمت لفترة طويلة ثم همهم بعدها: «ما خطب تلك المرأة؟».

كان الصائغ الصغير قد رقد على سريره ولم يُعر كلامَ أبيه مع نفسه أي اهتمام، كان يسترجع مشهد رؤيته للسيدة بيلان، لماذا حنت رأسها أسفل جذع الشجرة وضربته برأسها؟ لقد شعر بغصَّة في قلبه، هل ستدمي الخبطة رأسها وتسيل منها الدماء؟

رقعة شاسعة من الأرض العشبية الخضراء بدأت تمتدُّ أمام ناظريه، ورأى بيلان تسير عبر تلك الرقعة متَّجهة نحوه، وتسلَّلت رائحة جسدها العطرة إلى أنفه، ورآها تلوِّح له بيدها، فتقدَّم بخطوات سريعة نحوها حتى رأى ابتسامة على وجهها بوضوح، وفي تلك اللحظة التي اقترب فيها من بيلان صدح فوق رأسه فجأة صوت صرخات طير حادَّة فهبَّ من نومه فزعًا، وفتح عينيه فرأى والده لم ينم بعد؛ بل كان هناك جالسًا أسفل المصباح شارد الذهن.

فصل الربيع هو موسم رواج صنع الحُلِيِّ الفضية؛ حيث تبدأ فتيات الأسر الغنية وسيداتها اللاتي تأهَّبن لخلع الملابس الشتوية وأغطية الرأس في الاستعداد لتغيير الحُلِيِّ الفضية التي تُوضع على الرأس أو تُعَلَّق في الأذن، أو تُلبس في الرقبة أو اليدين أو القدمين وإضافة حُلِيٍّ جديدة؛ لذا كان حانوت فو هينغ للحُلِيِّ الفضية يعجُّ بالحركة والصخب نهارًا. في هذا اليوم كان شاو هينغ منشغلاً لدرجة أن يده لم تفارق المطرقة تقريبًا؛ لكنه كان حالما يتوقَّف عن الطرق ولو للحظات حتى يطفو أمام ناظريه مشهد السيدة بيلان وهي تحني رأسها أسفل جذع الشجرة، وفي كل مرَّة يظهر فيها هذا المشهد أمامه كان يهزُّ رأسه بعنف طاردًا إيَّاها؛ خشية أن تؤثِّر في عمله، ولقد لاحظ أن وجه أبيه مسودٌّ كمن يكظم غيظًا؛ لذا كان يخشى ثورته.

بشقِّ الأنفس حلَّ الليل ورحل كل الزبائن فتمطَّى شاو هينغ وجلس لتناول الطعام، وقبل أن ينتهي من تناول طعامه بدأ والده في التفكير في خطَّة العمل لما بعد العشاء: «لقد توصَّلتُ إلى طريقة جديدة لصنع العقود، اسمها عقد البازلاء، ولقد جرَّبت بالفعل صنع جزء منها، في المساء لتُجَرِّب أنت أيضًا صنع جزء».

«لقد جلستُ هنا ليوم كامل، أرغب في الذهاب للتمشية بعد تناول الطعام». قالها شاو هينغ بشيء من عدم الرضا مقاطعًا ترتيبات والده.

حدجه المسنُّ بنظرة جانبية وقال بغضب: «إلى أين ستذهب للتمشية؟».

«سأذهب للتمشية في الشوارع، لقد تعبت ساقاي من الجلوس».

«إيَّاك أن تذهب للقاء تلك المرأة من بيت مينغ ديفو».

«لكنها طلبت أن أذهب إليها ثانية».

«من أجل أي شيء تذهب ثانية؟ من أجل التسبُّب في مصيبة؟».

«لماذا تُهَوِّل الأمور هكذا؟ إن أردت أن تمنعني من الذهاب فلتمنعني وحسب». ثم عوج رقبته وصفع الباب خلفه.

تسمَّر المسنُّ في منتصف الغرفة برهة، بعدها فتح الباب ثانية في قلق وراقب خيال ابنه المبتعد في الظلام، حتى رآه في النهاية يسير في اتجاه مينغ ديفو، فرفع قدمه وضرب بها الأرض غضبًا وغيظًا.

«تبًّا لهذا الأحمق، إنه لا يدري شيئًا».

ثم استدار عائدًا إلى الغرفة وظلَّ يلفُّ قلقًا وغيظًا داخلها.

عندما عاد شاو هينغ كان الليل قد انتصف؛ كانت حالته غير طبيعية: خدَّاه أحمران، وعيناه لامعتان، وجبينه يتصبَّب عرقًا ساخنًا، أمَّا يداه فكانتا حائرتين كأنه لا يجد مكانًا لوضعهما فيه، ونظراته مرتبكة قليلاً، وعندما رأى أباه لا يزال يجلس هناك في انتظاره قال: «أبي ألم تنم بعدُ؟» ثم سارع نحو فراشه على عجل.

«هل ذهبتَ؟» قالها الأب ونظراته موجهة كالحراب نحو ابنه.

«نعم، لقد خشيتُ أن تنتظرني...». كان صوته أشبه بناموسة انقطع جناحها.

«ما الذي أعطتْكَ إيَّاه؟».

«لا شيء» واستدار بوجهه نحو والده كأنَّ شيئًا أحرق أذنه؛ لكنه سريعًا ما أشاح بوجهه ثانية.

«حقًّا لا شيء؟».

«حقًّا لا شيء».

احتدَّ صوت أبيه وقال: «لا شيء وتأخَّرت حتى هذا الوقت؟».

«لقد، لقد طلبتْ منِّي...».

«ماذا طلبتْ منك؟».

«طلبت مني... أن أختبئ وسط الأشجار».

«ماذا تفعل بالاختباء هناك؟».

«أنتظرها».

«تنتظرها؟».

«لقد عادت ثانية بعد أن نام كلُّ مَنْ بالمنزل».

«وماذا فعلتْ بعد عودتها؟».

«لا شيء».

«لا شيء ثانية؟».

«لقد حضنتني فجأة».

أغلق الأب عينيه؛ لكنه ظلَّ يسأل: «هذا فقط؟».

«لقد قبَّلتني».

«ثم؟».

«تحسَّستني».

«ثم؟».

«قالت: أنا لا أخاف، لا أخاف من أي شيء. وقالت على أي حال: أنا امرأة ماتت من قبل. وقالت: لن أتحمل أكثر من هذا، لن أتحمل أكثر من هذا».

فأغمض المُسِنُّ عينيه بقوَّة أكبر.

«قالت: إن للسماء أعينًا، وستتفهَّم ما أفعله».

«ثم؟».

«طلبت منِّي أن أخلع ملابسي».

«آه؟».

«ثم طلبت منِّي أن أضع ملابسي على الأرض وأضاجعها».

«ثم؟».

«ثم خلعتْ هي الأخرى ملابسها».

«يا للسماء!».

«هي التي بادرتْ بالفعل، أرادت أن أضاجعها، كنت خائفًا».

«وهل فعلت؟».

«نعم».

ففتح المسنُّ عينيه ذعرًا لكنه لم ينطق بكلمة.

«كانت تضاجعني وهي تهتف بصوت خفيض: لو داو جينغ، هل رأيت؟ سأجعل منك أضحوكة».

«لو داو جينغ؟».

«هل نسيت؟ هذا اسم ابن السيد الحاكم».

فارتعش جسد المسنُّ وتوقَّف عن طرح الأسئلة.

ساد الهدوء في الغرفة فجأة ولم يبقَ إلا صوت لهب الشمعة المتراقص، وبعد فترة صمت طويلة تنهَّد المسنُّ تنهيدة طويلة وهو يقول متحسِّرًا: «حانوت فو هينغ للحُلِيِّ الفضية سيضيع على يديك أيها الفاشل».

«أبي، هذا الأمر لا أُلام أنا عليه».

«مَن سألوم لو لم ألمك؟ أيها الأحمق يا ابن العاهرة، لقد أدرت هذا الحانوت لعشرات السنين لم تجرؤ خلالها أيُّ سيدة على أن تغويني، أما أنت فيالروعتك، تَسَلَّمت المهمَّة لأيام قليلة ففعلت ما فعلت؛ لكنه خطئي أنا أيضًا، حصرت تفكيري في جمع النقود لتوسعة الحانوت ولم أهتمَّ بالبحث لك عن زوجة في أقرب وقت».

«ألن ينتهي الأمر إذا ما قطعتُ علاقتي بها؟».

«هذا الأمر مثل الأفيون، مَنْ يمكنه الإقلاع عنه بعد أن جرَّب طعمه؟».

«أنا أستطيع».

فأطلق المسنُّ صوت استهجان من أنفه، فكرَّرها ابنه ثانية: «أنا أستطيع».

لم يعد شاو هينغ قادرًا على كبح جماح ذكرياته، صار يسترجع كل تفاصيل ما حدث بينه وبين بيلان في ذلك المساء؛ تلك الذكريات كانت دائمًا ما تتسبَّب في احمرار وجهه وتشنُّج عضلاته في نشوة غير طبيعية مما شكَّل رغبة عارمة في لقائها ثانية. وأحيانًا ما كانت تلك الرغبة تستعر لدرجة تجعله يفكِّر في اقتحام الأبواب والذهاب إلى مينغ ديفو لرؤيتها؛ لكنه بالطبع كان يشعر أن هذا أمر مخيف، وكان يعلم في قرارة نفسه أن هذا جرم لا يقبله العالم، إلا أن جمال هذا الأمر والسعادة التي تأسر القلوب التي يجلبها جعلته غير قادر على النسيان.

لم يعد قلبه قادرًا على الهدوء، وبسبب هذا الاضطراب في قلبه صارت أعماله الفضية غير متقنة، حتى إن الكثير منها احتاج لأن يرتدي والده نظارته الطبية ويعيد صياغتها مرَّة أخرى، لقد رأى وجه والده يزداد كآبة مع الوقت، وعلم أن هذا الأمر لا يمكن أن يستمرَّ؛ فأخذ يفكر في طريقة توقفه عن استرجاع ذكريات تلك الليلة والتوقُّف عن التفكير في بيلان، فتوصَّل إلى إجابة من وسط معارفه المحدودة: السبب في تفكيره الدائم في النساء بالتأكيد هو قوَّته الجسدية؛ وبوجود تلك الإجابة كانت هناك طريقة للتغلُّب على المشكلة؛ فقط يحتاج أن يهزل جسده ويضعف عندها قد يصل إلى هدفه؛ لكن كيف يجعل جسده يهزل ويضعف؟ قلَّة الطعام، فأي شخص لو أكل القليل فمن الطبيعي أن يصير ضعيفًا.

ولقد بدأ في استخدام شتَّى الحيل والحجج كي يقلل من طعامه منذ أن هداه تفكيره إلى تلك الطريقة، وخلال عشرة أيام تقريبًا ظهرت نتائج عمله فصار نحيفًا وشعر بجسده يفتقر القوَّة، أما الصائغ المسنُّ فقد كان يراقب ابنه بقلق؛ إلا أن شاو هينغ كان سعيدًا؛ فالآن صار حين يجلس أمام منضدة القوالب رافعًا مطرقته ليضرب بها وعلى الرغم من شعوره بثقل المطرقة فإن تلك الرغبة التي كانت تستعر في قلبه قد خفتت كثيرًا، وكان شاو هينغ يصلِّي بقلبه داعيًا أن ينسى هذا الأمر تمامًا خلال الأيام القادمة.

وفي ظهيرة أحد الأيام بعد شهر تقريبًا كان شاو هينغ الذي نحف كثيرًا قد انتهى لتوِّه من صناعة قطعتي حُلِيٍّ حين تطايرت تلك الرائحة المميزة لتدخل أنفه، لم يكن في حاجة لرفع رأسه كي يعرف مجيئها؛ عندها شعر بقلبه كوتر قوس مشدود، وعلى الفور جفَّ اللعاب في حلقه فصار جافًّا تمامًا، كان يرغب في رفع عينيه على الفور ليرى أي تغيُّرات حدثت لها بعد تلك الليلة؛ لكنه لم يجرؤ على ذلك، لقد خشي أن تفضح تعبيرات وجهه شيئًا ما؛ فقد كان هناك زبائن لا يزالون في الحانوت؛ تظاهر بأنه لم يشمَّ تلك الرائحة، ولم يسمع صوت خطواتها حتى حيَّاها أحد الزبائن في المحل، عندها فقط رفع عينيه فرأى وجهها المتظاهر بالهدوء، أما هي فقد اقتنصت نظراته وأرسلت إليه غمزة تحمل معانيَ كثيرة، فسحب نظره عنها بسرعة كأرنب مذعور لكنه اصطدم بصدرها، اصطدم بهذين الشيئين البارزين المهتزين أمام صدرها، وعلى الفور اندفع من أعماق قلبه إحساس النشوة نفسه الذي انتابه حين أمسك بهما في تلك الليلة، وشعر بجسده يرتعش بسبب تلك الذكريات.

«أيها الصائغ الصغير، إن أساور القدم التي صنعتها لي بها عيب؛ فهي ضيقة، عندما أسير بها تخنق كاحلي، وسِّعها قليلاً، هيا تعالَ وألبسنيها وسأخبرك المقاس المناسب». قالتها بهدوء ثم سارت ناحية الغرفة وهي تحمل في يدها زوج الأساور التي أوصلها إليها من قبل.

نظر شاو هينغ بسرعة إلى والده؛ لكن الوالد كان كمن لم يسمع أي كلمة مما قالته بيلان، وظلَّ محنيَّ الرأس منهمكًا في إزالة الزوائد عن خاتم فضي، كان شاو هينغ يعلم أن قول بيلان برغبتها في توسعة الأساور هو مجرَّد تمويه؛ لكن كان هناك

زبائن بالحانوت، فلم يكن باستطاعته إلا أن يتظاهر بأن كل شيء طبيعي وينهض وهو يقول: حسنًا.

وما إن دخل إلى الغرفة، وما إن اختفت عيون الناس حتى صارت نظرات شاو هينغ أكثر شجاعة، لقد تفحَّصها من رأسها حتى قدميها، ولاحظ أن الهالات السوداء حول عينيها اسودت أكثر كما نحفت وجنتاها، عندها قبضت بيلان على يديه بقوَّة ووضعتهما على صدرها، فشعر بقلبها يدقُّ بعنف، وسمع أيضًا دقات قلبه تنبض بجنون، وشعر برغبته في جسد بيلان التي كتمها الجوع تتزايد بسرعة، وهنا تذكَّر وعده لوالده؛ لكنه رأى أيضًا ذلك الوعد مثل الثلج المعرَّض لأشعة الشمس، يذوب بسرعة البرق.

«الليلة، بالطريقة نفسها في المكان نفسه». همست بجوار أذنه فتدحرج صوتها مثل حبات الأرز إلى داخل أذنه، بعدها لعقت بلسانها وجهه.

وقبل أن يردَّ عليها قالت فجأة بصوت عال: «حسنًا، وسِّعها قدر ورقة قمح».

لقد أفزعه ذلك الصوت قليلاً لكنه ردَّ على الفور، وقد أدرك ما يجب عليه قوله: «حسنًا، سأوسِّعها بمقدار ورقة قمح».

ومثلما جاءت خرجت ثانية بلا صوت.

أما هو فمسح لعابها العطر المسكر عن وجهه ثم توجَّه إلى خارج الغرفة.

وقرب مساء ذلك اليوم وبعد أن ودَّع آخر الزبائن وأغلق باب الحانوت توجَّه شاو هينغ نحو والده الجالس هناك يدخن ونظر إليه، ثم قال متلعثمًا: «أبي، إنها تريدني أن أذهب إليها».

لم يرد المسنُّ؛ بل سحب نفسًا عميقًا من غليونه فقرقر بصوت عالٍ.

«أنا أرغب في الذهاب ثانية».

لم يتلقَّ ردًّا بل ظلَّ صوت الغليون يقرقر.

«مرة واحدة فقط». قالها لأبيه بلهجة قسم.

ظلَّ المسنُّ مثل الأصم جالسًا في مكانه يدخن غليونه، وقد تصاعد الدخان كالأحبال لتتشابك معًا في سماء الغرفة.

«مرَّة واحدة فحسب». قالها وفتح فرجة في الباب بحرص ثم خرج بسرعة البرق.

هنا فقط نزع المُسِنُّ غليونه من فمه وألقى به على الأرض، وقام بجسد مرتعش وشدَّ قطعة قماش حمراء تغطِّي المحراب، ثم خرَّ راكعًا على ركبتيه ببطء أمام تمثال جوانين المصنوع من الفخار الأبيض والموضوع داخل المحراب متضرعا.

«يا بوذا، احم ولدي».

# 3

أرخى الليل سدوله وتغطَّى بها منزل السيد «لو» المبنيُّ على الطراز القوسي، ولم يبقَ منه إلا كلمة «مينغ ديفو» المطلية بالفضة التي ظلَّت ظاهرة للعيان؛ كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل وعمَّ السكون أرجاء مينغ ديفو، وسكن كلُّ الأصوات بالمدينة خارجه، ولقد تثاءبت الخادمة ثلاثًا قبل أن تذهب ناصحة السيد لو داو جينغ بالذهاب إلى غرفة النوم ليستريح؛ لكنه كان لا يزال جالسًا بلا حراك في غرفة مكتبته؛ لكنه لم يكن يقرأ الكتب، فلم تعد لديه الرغبة في ذلك؛ بل كان يستعرض بحرص شديد مقتنياته الثمينة؛ وهي عبارة عن حُلِيٍّ نسائية من كل صنف ولون ومصنوعة من خامات مختلفة.

على الرغم من أن لو داو جينغ لم يتجاوز الخامسة أو السادسة والعشرين من عمره فإن مقتنياته كانت غنية للغاية؛ كان كلُّ ما يقتنيه عبارة عن حُلِيٍّ نسائية، منها المصنوع من الخشب والبامبو والعظام وقرون الحيوانات والعاج واليشم والفضة والذهب، كانت تلك المجموعة من الحُلِيِّ تستعرض المسار التاريخي لتطوُّر حُلِيِّ النساء.

كانت هواية لو داو جينغ وهو رجل في جمع الحُلِيِّ النسائية هي أمر غير مفهوم؛ لكن هوايته تلك بدأت منذ كان في السابعة أو الثامنة من العمر، وكان أول مَن اكتشف أن لديه تلك الهواية هما أختاه الأكبر منه؛ فقد لاحظتا سرقة حُلِيِّهما، ولقد شكَّتا في أن الخدم هم الذين سرقوها؛ لكن التفتيش المفاجئ لمساكن الخدم والاحتياطات الشديدة ضدَّ السرقة كلها لم تُجْدِ نفعًا، وذات مرَّة اكتشفتا بالصدفة أخاهما لو داو جينغ يقف أمام المرآة في الحجرة متزيِّنًا وعلى رأسه ورقبته ويديه وقدميه كلُّ الحُلِيِّ التي ضاعت منهما، حينها شعرتا بالرغبة في الضحك وبالغضب في آنٍ واحد، وأخبرتا والدهما بذلك الاكتشاف، وفي ذلك الوقت كان الأب لو جينغ رين لا يزال يشغل منصب محافظ، وما إن سمع بالأمر حتى سبَّه قائلاً: «يا لحقارة هذا الصغير». ثم أمسك بكرباجه وأوسعه ضربًا على مؤخِّرته؛ بعدها انخرط لو داو جينغ في صراخ وبكاء؛ لكنه لم يُقلع عن حبِّه للحُلِيِّ النسائية؛ ومع بلوغه تدريجيًّا صار جمعه للحُلِيِّ النسائية يتمُّ بشكل أكثر سرية، فكان في الغالب يشتريها بنقوده، فكان يستخدم مصروفه الذي يعطيه إيَّاه والداه، والعيدية التي يعطيه إيَّاها الأقارب والأصدقاء لكي يشتري الحُلِيَّ؛ وبالطبع كان في بعض الأحيان يقايض خلسة بعض الأشياء الثمينة بالمنزل؛ لذا فتلك الحُلِيُّ التي تملأ صندوقين صغيرين كلُّها تقريبًا أتت بتلك الطريقتين.

في هذه اللحظة وتحت ضوء الشموع نظر إلى تلك الحُلِيِّ ذات الأشكال والخامات المختلفة وغرق قلبه في شعور لذيذ ومخدِّر؛ فلا توجد أي امرأة في مدينة نانيانغ بأكملها تملك كل تلك الحُلِيِّ، بمن فيهن السيدات الثريات، بالطبع لم تكن أنواع الحُلِيِّ الفضية وأعدادها كبيرة في تلك المجموعة؛ لكن لا داعي إلى القلق، فالحُلِيُّ الفضية صارت رائجة الآن، آجلاً أو عاجلاً سأجمع كل أنواع الحُلِيِّ الفضية وأشكالها؛ لكن المشكلة الأساسية هي غياب النقود؛ فالنقود التي يعطيني إيَّاها أبي وأمي قليلة للغاية، ما إن تصير معي نقود حتى أذهب إلى حانوت فو هينغ لصنع بعض منها، سأصنعها نوعًا نوعًا حتى أجمع كل الأنواع.

عندما عبثت أصابعه وبصره بتلك المقتنيات الفضية، شعر برغبة تتصاعد بشكل غامض من صدره: ارتداء تلك الحُلِيِّ النسائية، وارتداء جلباب بيلان ليصير امرأة لفترة وجيزة في تلك الغرفة، تلك الرغبة ازدادت تدريجيًّا، وأرغمته على أن يمسك بذلك العقد الفضي ليضعه على عنقه، ثم يُمسك بمشبكي الشعر ويضعهما في شعره، وعندما كان يقوم بكلِّ هذا كانت سعادة تبعث على الدوار تغلفه بالكامل؛ لكن في تلك اللحظة لمعت كلمة ضخمة سوداء أمام ناظريه: لصٌّ. وانفجر صوت أبيه في الوقت نفسه بجوار أذنه قائلاً: لصٌّ. عندها بدأت الابتسامة على وجهه في الذبول، ومدَّ يده المرتعشة داخل جيب قميصه وأخرج منه قدَّاحة من تلك التي تُستخدم في إشعال الغليون، وأشعل بيدين مرتعشتين ورقة من صحيفة، وتحوَّلت الورقة تدريجيًّا تحت هزَّاته ونفخاته إلى اللون الأحمر مطلقة ألسنة لهب صغيرة، فأحنى خصره قليلاً ورفع ساق سرواله اليسرى، وعندما ظهرت ساقه فضغط بالورقة المشتعلة عليها، وعلى الفور بدأت رائحة جلد ولحم محترق في الانتشار في الغرفة، وظهرت حبيبات العرق على جبينه؛ ومع تزايد العرق على وجهه والألم في ساقه، شعر أن الرغبة المتمدِّدة في قلبه بأن يصير

امرأة قد بدأت في التضاؤل ببطء حتى عادت أخيرًا لتنزوي في الركن الذي كانت مختبئة فيه، عندها أطلق تنهيدة وارتخى جسده جالسًا على الأرض، لقد تغلَّب مرة أخرى على تلك الرغبة المخيفة في التحوُّل لامرأة، وهو دائمًا ما يستخدم تلك الطريقة في الصراع معها؛ حتى إن ساقيه قد امتلأتا بآثار الحروق: أيتها السماء، لماذا خلقتني بهذا الشكل؟

ألن تنام؟ مع صوت صرير الباب اندفع عبر فرجة الباب صوت زوجته بيلان الغاضب، فأصابه الهلع وقام على عجل ليخلع عن رقبته العقد وينزع مشبك الشعر عن رأسه ثم يضعهما بسرعة البرق في صندوق الحُلِيِّ الفضية ويغلق الصندوق، ثم وضع القفلين النحاسيين على الصندوقين وأغلقهما ثم همّ ليفتح الباب، كانت بيلان واقفة خارج الباب وهي ترتدي ملابس النوم وقد ارتسم على وجهها غضب شديد. «إلى متى ستتلكَّأ؟ هل أنت مصرٌّ على أن تنتظر حتى أنام لتدخل محدثًا جلبة وتفزعني من نومي؟ كيف أعيش بهذا الشكل؟».

«حسنًا حسنًا، سأنام حالاً». قالها لو داو جينغ وعلى وجهه ابتسامة يسترضيها بها؛ لكن ما إن استدارت بيلان بجسدها حتى أذهب الضجر ابتسامته، لقد سئم بيلان، سئمها من أعماق قلبه، لم يسأمها لكونها قبيحة، فهو يعي جيدًا أنها جميلة للغاية، يمكن معرفة ذلك بسهولة من نظرات الرجال المحيطين بها، بالإضافة إلى أنه أنَّى لامرأة قبيحة أن تصير زوجة ابن لعائلة الحاكم؟ ولم يسأمها بسبب سوء طبعها، فهو يعلم كم كانت خجولة ورقيقة في بداية مجيئها إلى هنا، لقد صارت شرسة فيما بعد بسبب معاملته لها؛ لقد كان يسأمها لكونها امرأة؛ لأنها تطلب منه القيام بذلك الأمر حالما يحلُّ الليل، أمَّا هو فلا يحبُّ العيش مع النساء منذ زمن طويل، ويكره تمامًا القيام بتلك اللعبة مع النساء.

منذ متى بدأ نفوره من النساء؟ هو نفسه لا يتذكَّر، على أيِّ حال فإنه منذ أن بدأ يعي الأمور وهو يرغب أكثر في اللهو مع الصبية، وعندما بلغ الخامسة أو السادسة عشرة كان دائمًا ما يأخذ أصدقاءه الصبيان إلى غرفة نومه ويرتدي الحُلِيَّ التي جمعها ليُريهم إيَّاها على جسده، وفي كل مرَّة يلتفُّون حوله ضاحكين كان يشعر بنشوة لا تضاهى؛ وعندما سمع والداه يخبرانه برغبتيهما في تزويجه أعرب بتصميم عن عدم رغبته في الزواج؛ لكن في النهاية حدجه الأب بنظرة صارمة وقد اتسعت عيناه وقال: «هراء، الرجل يتزوَّج حينما يبلغ؛ أي منطق في عدم الرغبة في الزواج؟ لو لم ترغب في الزواج فمَنْ سيحمل اسم عائلة لو؟» وأمام ضغط والده وتهديده، لم يجرؤ على الرفض؛ ومن ثَمَّ حُملت بيلان على هودجها إلى مينغ ديفو.

ومنذ أن جاءت بيلان وهو يكره الليل، ففي الليل يُصبح مضطرًّا إلى أن يشاركها فراشًا واحدًا، وما إن يرى جسدها الأبيض الغضَّ حتى يشعر بنوع من الإجبار والحسد، فهو لا يرغب البتة في لمسها، وبالطبع لا يرغب في فعل ذلك الأمر معها، وقد شعر بالتعجُّب والغرابة من شعوره هذا، فالرجل يجب أن يحبَّ النساء، بالإضافة إلى أن كل هؤلاء الرجال بمن فيهم الخدم ما إن يروا بيلان حتى تلمع أعينهم، فلماذا أشعر بالضجر منها؟ لقد اجتهد من قبلُ لكي يخمد السأم تجاهها في قلبه ويقترب منها، لم يكن بالطبع عاجزًا عن فعل ذلك الأمر معها؛ لكنه حين يفعله كان يحتاج ليتخيَّلها مخلوقًا غريبًا ذا وجه مشوَّش وله ذقن وشارب. لقد تسبب كبته لهذا السأم في ألم شديد له، وهذا الألم زاد من كرهه لليل؛ لذا صار يختبئ كل ليلة في مكتبته، أو بالأحرى غرفة مقتنياته حتى الوقت الذي يعتقد فيه أنها نامت، حينها يتسلل ليرقد في خفَّة، وقد حاول من قبل أن ينام بعيدًا عنها؛ لكن بعد يومين فقط تدخَّلت أمه وقالت: «لو تسرَّب خبر فعلك هذا فسيعتقد الناس أن هناك مشكلةً في بيتنا، وهذا سيؤثِّر في سمعة والدك وسمعة العائلة».

شعر لو داو جينغ بالحيرة من حالته تلك، فبدأ في البحث عن السبب أملاً في التوصُّل إلى علاج لها؛ لذا ذهب دون علم أبويه ودون علم بيلان إلى مكتبة نانيانغ وبحث في كل كتب الطبِّ الموجودة هناك، قرأها بدقَّة بالغة؛ لكنه في النهاية لم يفهم سرَّ رغبته في أن يكون أنثى؛ كما ذهب خلسة إلى عدَّة متاجر للأدوية؛ لكنه لم يجرؤ على أن يشرح للطبيب الأمر بوضوح؛ بل اشترى الخامات كما وردت في وصفات الكتب الطبِّيَّة، فاشترى بعضًا من عشب الروائح الخمس والقرانيا وغراء قرن الوعل والجينسينغ والجوتا والبوليغنوم والجوتشي ودرقات السلاحف، وغيرها من مستحضرات الدواء الصيني، ثم خلطها وصنع منها دواء يشربه، إلا أن كل هذا لم يُجْدِ نفعًا، وظلَّت رغبته في أن يصير امرأة مستعرة، وفي النهاية أصابه

اليأس وتخلَّص من قِدْر صُنْع الدواء وضرب رأسه في الحائط وهو يبكي ويهتف بلا حول ولا قوة: «ما الذي دهاني؟».

واليوم مِثْلُ مِثْلِه عدد لا يحصى من الليالي السابقة، سار على مضض نحو غرفة النوم، وعندما دخلها وجد بيلان وقد استلقت على الفراش، ووضعت مخدته بجوار مخدتها، في العادة كان كل منهما ينام في ناحية من الفراش؛ لذا اضطرب قلبه: «يبدو أنها ستُجبرني على القيام بهذا الأمر ثانية». وبسبب الخوف والنفور اقشعرَّ جسده فجأة فوقف بجوار الفراش معترضًا قائلاً: ألم نقم بالأمر من قبلُ؟

«كم يومًا مرَّ على ذلك؟» قالتها بيلان وهي مضطجعة هناك بلا حركة، فقط فتحت عينيها وسألت بلهجة ساخرة.

فأغمض عينيه قليلاً وحسب ثم قال: «بضعة عشر يومًا».

«وهذا وقت طويل أم لا؟» قالتها وخلعت قميص نومها، وعلى الفور تراقص أمامه جسد أبيض كالثلج؛ مما أجبره على تضييق عينيه.

شعر فعلاً بعدم منطقية كلامه؛ فقد مرَّ وقت طويل إلى حدٍّ ما؛ لكنه صرَّ على أسنانه قائلاً بشيء من الغضب الممزوج بالكراهية: «ليس طويلاً». وفي تلك اللحظة شعر بكره شديد لتلك المرأة: «جماع جماع جماع، ألا تكتفي؟ لا ترضى أبدًا، دائمًا ما تجبرني على ذلك، هل هناك امرأة في الدنيا مثلها لا تشعر بالخجل؟» إنه لا يزال يذكر تلك الليلة حين أصرَّت على أن يُجامعها حتى أصابه الضجر فاشترط شرطًا مرعبًا: «إن أردتِ أن أجامعكِ فلا بأس؛ لكن سأجرح خطًّا داميًّا فوق كاحليك باستخدام مشبك الشعر الفضي». كان يرغب في استخدام الألم ليزيل الرغبة من قلبها وفقًا لخبراته في كبح جماح شهواته المخيفة، لقد توقَّع أن يخيفها ذلك الشرط؛ لكن ما لم يتوقَّعه أنها جزَّت على أسنانها ومدَّت ساقيها، وأصرَّت على أن يجامعها متحمِّلة ألم الجراح.

يا لتلك المرأة، إنه يشتاق إلى تلك الأيام في بداية زواجهما، وقتها كانت خجولة ورقيقة، كانت لا تجرؤ على خلع ملابسها في الضوء من شدَّة الخجل، ولا يصدر عنها أيُّ حركة حين تصعد إلى الفراش، حتى تقلُّبها كان بخفَّة بالغة؛ ما أجمل تلك الليالي! حينما كانا يرقدان بهدوء على الفراش ولا يمدُّ أحدهما يده نحو الآخر، ولا يزعج أحدهما الآخر، ولا يلمس أحدهما الآخر، ولا يُجامع أحدهما الآخر؛ لكن تلك الأيام الجميلة ذهبت إلى غير رجعة؛ لقد صارت تدريجيًّا أكثر جرأة وعنادًا؛ في البداية كانت تمدُّ يدها فقط نحوي، بعدها صارت ترمي بجسدها كلِّه، بعدها أصبحت تطلب منِّي القيام ببعض الحركات، وتطوَّر الأمر وازدادت جرأتها حتى صارت تجبرني بسبب أو دون سبب، حتى إنه في بعض الأحيان قد نصل لطريق مسدود إذا رفضتُ مجامعتها، يا للسماء!

«حسنًا، ما دمتَ ترى أنه ليس طويلاً إذن فهو ليس طويلاً، هاك وسادتك، هيا نم». ورمت الوسادة تجاهه كأنها ترمي بقالب طوب.

كان عدم إصرارها خارج توقُّعاته، ففي الماضي كانت تلتصق به بشتَّى الطرق والوسائل إذا ما رفض مجامعتها؛ حتى تصل به إلى ألَّا مفرَّ من القيام بالأمر.

استعرت النيران في رأسه، ماذا دهاها الليلة؟

وضع الوسادة في الناحية الأخرى من الفراش، وبدأ في خلع ملابسه والشكُّ والريبة يملآن قلبه؛ لكن ما إن انتهى من خلع ملابسه ورقد على الفراش حتى تناهى إلى مسامعه صوت شخيرها المنتظم القادم من الجهة الأخرى من الفراش؛ عندها لم يتمالك نفسه في أن يشعر بالحيرة، ففي الماضي لو لم يُلَبِّ رغبتها كانت تتقلَّب في الجهة الأخرى من الفراش، وهي تتنهَّد تنهُّدات غاضبة، وتظلُّ هكذا طويلاً بلا نوم مما يضطرُّه إلى إبقاء عينيه مفتوحتين، فكيف لها أن تنام الليلة قريرة العين هكذا؟ «أتمنَّى أن يستمرَّ الأمر هكذا طويلاً».

# 4

كان لو داو جينغ يمضي نهاره حرًّا بلا قيود، فقد رتَّب له والده عملاً في مصلحة الغلال، وكان رئيس المصلحة يعرف أنه الابن الأكبر للسيد الحاكم؛ لذا كان يُعَبِّر عن احترامه لوالده من خلاله، فكان نادرًا ما يُكَلِّفه بمهمَّة ما، فكان كلما سأل رئيسه ماذا سأفعل اليوم كان يردُّ عليه قائلاً: «لا يوجد أيُّ مهامَّ عاجلة، اذهب في جولة، تفقَّد الأحوال اليوم في سوق الغلال، وإذا وجدتَ مَنْ يضرُّ بمصالح العامَّة اقبض عليه وائْتِ به إلى هنا». وعلى الفور يخرج لو داو جينغ سعيدًا للتجوُّل في الشوارع.

لكنه في الوقت نفسه كان متحمِّلاً للمسؤولية في تفقُّد سوق الغلال؛ فقد كان يتفحَّص بدقَّة كل حانوت غلال، ولو اكتشف قيام أحدهم بخلط القمح الفاسد مع القمح الجيد، أو وضع الرمال وسط حبوب الدّخْن كان يُوَبِّخه على الفور؛ لكنه كان نادرًا ما يسبُّ الآخرين؛ بل يؤنِّبهم بلهجة رقيقة على غياب ضميرهم وإلحاقهم الضرر بالعامَّة، حتى تحمرَّ وجوههم وآذانهم ويهزُّون رؤوسهم معترفين بالخطأ وسط صوت التأنيب الرقيق ذاك. وقليلاً ما كان يقبض على المخالفين ويأخذهم إلى مصلحة الغلال؛ فقد كان يخشى أن يتعرَّضوا للعقاب البدني هناك، فهو لا يتحمَّل رؤية شخص يُضرب؛ وبسبب قلبه الطيب كان معظم التجار يُجِلُّونه ويحترمونه.

وحينما كان ينتهي من تفقُّد سوق الغلال كان لا يذهب إلى الأماكن التي يرتادها الرجال عادة؛ مثل: الحانات والمقاهي والمسارح ونوادي القمار وشارع هواليو؛ فهو لا يحب شرب الخمر ولا يحب شرب الشاي ولا يحب مشاهدة المسرحيات ولا يحب القمار ولا يحب البغايا؛ وكان يرتاد ثلاثة أماكن: الأول سوق شيجوان للبضائع المتنوِّعة، فهناك دائمًا ما يوجد مَن يبيعون حُلِيَّ النساء المتوارثة في عائلتهم بأسعار رخيصة؛ بسبب الاحتياج العاجل للنقود، والكثير من الحُلِيِّ التي كان يقتنيها قد اشتراها من هناك، والثاني هو متجر فوشوينلاي للحرير والأقمشة المستوردة، فهناك يوجد كل الأشكال والألوان من الحرير المصقول والقماش المستورد؛ لكنه لم يكن يدخل إلى هذا المتجر بغرض الشراء؛ بل من أجل التمتُّع بالمشاهدة، وكان دائمًا ما يطلب من العامل هناك أن يجلب إليه أزهى الأقمشة ويضعها على جسده متأملاً فيها ذات اليمين وذات الشمال، فكان يشعر براحة كبيرة تملأ قلبه وهو يفعل هذا، أما المكان الثالث فهو المسكن الجماعي في الناحية الشمالية من شارع ديهوا، وكل الذين يسكنون هناك هم الحمَّالون وحاملو الهوادج وسائقو عربات الخيل والطهاة وغيرهم ممن يعملون في الأعمال الشاقَّة، وهناك يسكن تيتوان الذي كان يعمل حمالاً في منزل أسرته؛ لذا كان دائمًا ما يأتي إلى منزل تيتوان ويجلس معه، وتيتوان أكبر منه ببضع سنوات، وكانا دائمًا ما يلعبان معًا حينما كان يعمل في منزل عائلة «لو».

كان تيتوان هذا طويل القامة ضخم الجثة أسود اللون، وكان اللحم على كتفيه وعلى ذراعيه بارزًا للخارج مثل البيضة؛ لذا كان لو داو جينغ يحبُّ رؤيته، وبالأخص يحب رؤية جسده نصف العاري، وفي كل مرَّة يراه كان قلبه ينبض بسعادة يعجز عن وصفها بالكلمات.

وبالإضافة إلى تلك الأماكن كان يحب أيضًا الذهاب إلى حانوت فو هينغ للحُلِيِّ الفضية؛ لكنه في الوقت نفسه كان يجبر نفسه على عدم الذهاب، فحالما يرى الحُلِيَّ الفضية دقيقة الصنع بين يدي الأب وابنه كانت تتملَّكه رغبة عارمة في خطفها وارتدائها؛ لكن صنع الحُلِيِّ الفضية يحتاج للفضة، وهناك قواعد صارمة تحكم منزل عائلة لو، فالراتب الذي يتقاضاه من العمل في مصلحة الغلال يجب أن يُسَلَّم بالكامل إلى أمِّه، ثم يأخذ بعدها مصروفًا له تسلمه إليه أمُّه بتصريح من أبيه؛ أنَّى لتلك النقود أن تكفي لكي يأتي هنا ويصنع حُلِيًّا فضية؟ كما أنه لا يجرؤ على ذلك، فإذا عرف أبواه أنه وهو رجل بالغ قد أتى إلى هنا ليصنع حُلِيًّا فضية نسائية فسيُعَرِّضه ذلك للتوبيخ؟

عندما خرج اليوم من سوق الغلال ذهب أولاً كعادته إلى سوق شيجوان، كان يجدُّ السير تجاه السوق وفي قلبه يحضِّر دفاعه عن نفسه: لقد أتيتُ إلى السوق كي أتجوَّل وأشاهد، وبالصدفة أشتري قطعة أو قطعتين من الحُلِيِّ الفضية، فقط من أجل الاقتناء وليس لسبب آخر. كان دائمًا ما يجد في قلبه حجَّة يدافع بها عن نفسه ضد الأشياء التي يفكِّر في فعلها؛ والتي لا يفعلها الرجال عادة.

لم يكن هناك الكثير من الناس في السوق اليوم، ولقد أخذ جولتين بها ولم يجد من يبيع حُلِيًّا فأصابه هذا بالإحباط؛ ومن ثَمَّ وجد نفسه مضطرًّا إلى السير تجاه متجر فوشوينلاي؛ وقد كان في المتجر الكثير من الزبائن الذين أتوا للشراء؛ لكن كان معظمهم من السيدات والفتيات؛ لذا كان دخوله للمتجر لافتًا للأنظار، وقد لاحظ نظرات بعض النسوة موجَّهة إليه؛ لذا شعر بعدم الراحة؛ لكنه على الفور جهَّز في قلبه دفاعًا عن نفسه: «لقد أتيتُ فقط كي أرى البضائع الجديدة بالمحل وأعود لأنقل الأخبار السارَّة لبيلان، لم آتِ لكي أشتري لنفسي».

وعلى رفِّ البضائع رأى قطعة قماش ذات خلفية بلون واحد وزهور بيضاء صغيرة، ذلك النقش لم يكن موجودًا من قبل؛ لذا أشار بيده إلى العامل كي يأتي بها، فتحسَّسها أولاً بين يديه بعدها لم يتمالك نفسه في أن يضعها على جسده، ما أجمل قطعة القماش تلك لو صنعت منها تشيباو[1]، ووضعته على جسدي، عندها خُيِّل إليه أنه يرى نفسه وقد ارتدى التشيباو وتهادى بخطوات متمايلة، فتصاعدت سعادة بالغة في أعماق قلبه؛ لكن ما إن رأى نظرات بعض النساء مسلطة عليه حتى أخفى تلك السعادة المرتسمة على وجهه سريعًا، وقال للعامل وهو يسحب القماش المنسدل على جسده: «سأرجع وأخبر الجماعة أن خامة تلك القماشة رائعة». ثم غادر المكان وهو يعزُّ عليه المغادرة، وتوجَّه نحو بيت تيتوان الحمال في المسكن الجماعي بشارع ديهوا؛ وما إن دلف إلى المسكن حتى سمع صوت ضحكات تيتوان تتعالى من غرفته، فاهتزَّ قلب لو داو جينغ من صوت الضحكات الذي يعرفه جيدًا، والذي يمثل له قوَّة جذب لا تنتهي، فاحمرَّ وجهه قليلاً وأسرع من خطواته متعطشًا لرؤية تيتوان، وفي الوقت نفسه بدأ قلبه يجهِّز حجَّة الدفاع: «أنا آتٍ لرؤية تيتوان لأنه عمل حمَّالاً من قبلُ في منزلنا، آتٍ فقط لتجاذب أطراف الحديث معه، وليس لغرض آخر».

وما إن اقترب من باب مسكن تيتوان حتى انفتح الباب محدثًا صريرًا ورأى تيتوان ومسنًّا آخر يخرجان من الغرفة تباعًا، وعلى كتف تيتوان استقرَّ كالعادة دلوا الماء الضخمين الخاصين به. وما إن رأى داو جينغ حتى ابتسم وقال: «السيد لو الصغير، ليس لديَّ وقت فراغ اليوم للتسامر معك هنا، سأخرج لحمل الماء وكسب النقود، إنني حقًّا لا أفهم لماذا تحب المجيء إلى مسكني الحقير هذا الأشبه ببيوت الكلاب». عندها ضحك داو جينغ بحرج وقال: «حسنًا، حسنًا، سأمر عليك في يوم آخر». لكن بصره ظلَّ ملتصقًا بكتفي تيتوان العاريين القويين اللامعين.

بعد أن خرج من شارع ديهوا توجَّه نحو حانوت فو هينغ للحُلِيِّ الفضية، فلم يبقَ له مكان سواه، فسار نحوه والانفعال يملؤه؛ وعندما صار على بُعد بضع عشرة خطوة من الحانوت سمع فجأةً صوت ضحكات، ضحكات ناعمة مجلجلة مألوفة له. بيلان؟ هل هي؟ بالتأكيد جاءت لصنع حُلِيٍّ فضية، فالمصروف الذي تعطيها إيَّاه أمي كل شهر أكبر من مصروفي بكثير؛ لذا بإمكانها أن تأتي هنا وتصنع الحُلِيَّ، إنها في الحقيقة أغنى منِّي! وبالتفكير في تلك النقطة بدأ إحساس بالحسد يتضخَّم في قلبه حتى ضاق صدره به، فتوقَّفت خطواته وتردَّد قليلاً هل يدخل أم لا؟ فلو دخلت فبالتأكيد ستسألني بيلان عما أتى بي إلى هنا، وربما ستخبر أمي بأمر ذهابي إلى حانوت الحُلِيِّ الفضية بعد أن تعود إلى البيت، ولو حدث هذا فبنسبة كبيرة سأتعرّض للتوبيخ من أمي.

خطت بيلان إلى خارج الحانوت مصاحبة لصوت ضحكاتها، وعندما رأت زوجها لاحظ أن ذعرًا وقلقًا طفا على وجهها بسرعة.

ما الذي أفزعك؟ هل تخشين أن أراك وأنت تصنعين حُلِيًّا فضية جديدة؟ اصنعي، ما دام معك فضة فاصنعي، لن أتدخَّل، فقط في الوقت المناسب يجب عليك إهدائي قطعة منها.

«ما الذي صنعتيه ثانية؟» فتح فمه وسألها وقلبه مملوء بالفضول ليرى ما الذي صنعته.

«ما الذي أتى بكَ إلى هنا؟» سألته والذعر لا يزال باديًا في صوتها.

أتيتُ للفرجة؛ فقد خرجتُ من سوق الغلال لأتمشَّى وأتفرَّج قليلاً، ما الحُلِيُّ التي صنعتِها؟ هل يمكن أن تريني إيَّاها؟

«بالطبع؛ لكن عليك الانتظار للمساء». قالتها بلهجة هادئة، وقد ظهرت على طرف فمها تلك الابتسامة الساخرة التي

يعرفها جيدًا، فانقبض جسده وأدرك على الفور ما تعنيه بكلامها، بالتأكيد ستخلد إلى الفراش مساءً وتستخدم تلك الحُلِيَّ لتجبرني على مضاجعتها، يا لتلك المرأة، ألا تشبع أبدًا؟ إنَّني أُفَضِّل عدم رؤية تلك الحُلِيِّ الفضية على القيام بذلك.

لكن، ما الحُلِيُّ الفضية التي صنعتها في تلك المرَّة؟

بعد العشاء بقليل اتَّجه لو داو جينغ إلى غرفة مكتبته، كان يخشى أن تحثَّه بيلان على النوم مبكرًا، وكما توقَّع، لم يبتعد بخطواته كثيرًا حتى أتى صوتها من خلفه تصيح: «لقد أظلمت السماء، إلى أين أنت ذاهب؟ لتخلد إلى الفراش لترتاح قليلاً، لقد انشغلتَ ليوم كامل ألم تتعب؟».

«لا لستُ متعبًا، يجب أن أتمرَّن على كتابة الرموز». ألقى بحجَّته ثم غادر مسرعًا كمن يهرب متجهًا إلى غرفة الكتب. ففي كل مرَّة كان يرغب فيها في الهروب من بيلان كان دائمًا ما يقول: إنه يريد التمرُّن على كتابة الرموز. ولقد كان خطُّه بالفعل به بعض الموهبة؛ لكنه لم يكن يتدرَّب على الخطِّ كثيرًا في غرفة الكتب، فاهتمامه لم يكن منصبًّا على الخطِّ؛ لقد جلس في غرفة الكتب قليلاً حتى هدأ والتقط أنفاسه، ثم فتح قفلي الصندوقين الخشبيين الصغيرين، وفتحهما على مصراعيهما لتجول نظراته المليئة بالرضا والفخر والسعادة فوق الحُلِيِّ الموجودة بهما. بعدها التقط عقدًا مصنوعًا من اليشم، وعقدًا آخر مصنوعًا من الخرز الخشبي، وعقدًا ثالثًا مصنوعًا من الفضة، ووضعها جميعًا فوق غطاء الصندوق مقارنًا بدقَّة بينها.

لم يَعُدْ ارتداء العقود المصنوعة من الخرز الخشبي أو عقود اليشم يضاهي عقود الفضة جمالاً، فعقود الخرز الخشبي سوداء حالكة، وعقود اليشم ثقيلة، أما العقود الفضية فتبدو لامعة براقة حين ترتديها في رقبتك، وفي الوقت نفسه خفيفة وتجذب الأنظار، يبدو أنه مع مرور الوقت يجب على النسوة تجديد حُلِيِّهِنَّ باستمرار، فما كان جميلاً ورائجًا في الماضي ليس بالضرورة أن يكون كذلك في الحاضر، يا إلهي، إن الأمر الأكثر إلحاحًا الآن هو اقتناء حُلِيٍّ فضية أكثر.

بدأ العقد الفضي المصنوع على شكل زهرة البرقوق، والراقد على غطاء الصندوق في إخراج بهائه وجماله تجاه لو داو جينغ؛ فجعله يمسك به ببطء ويضعه على رقبته، في تلك اللحظة تذكَّر فجأة عندما كان صغيرًا حين كانت أخته والخادمات دائمًا ما يُزَيِّنونه مثل فتاة صغيرة، فيُلبسنه ملابس الفتيات ويضفرن شعره ويضعن له مساحيق الزينة؛ ويُعَلِّمْنَه كيف يمشي بخطوات خجولة مثل الفتيات. وقتها حين كنتُ أرتدي ملابس أختيَّ وأمشي في الفناء مثل الفتيات، ألم أكن أجعل الحمالين يتحسَّسون وجهي؟ ألم يكونوا يهتفون ضاحكين: انظروا إلى تلك الفتاة الصغيرة كم هي جميلة؟

تلك الذكريات حول الماضي فتحت دون وعي منه أبواب الزنزانة التي يحبس فيها تلك الرغبة في قلبه، فالتفت بجسده بعنف وتناول من درج المكتب تشيباو أخضر فاتح اللون كان قد أخذه خلسة من صوان ملابس بيلان، وبحركة سريعة خلع ملابسه ووضع التشيباو على جسده، ثم سار بميوعة ودلال نحو المرآة بخطوات النسوة التي تعلَّمها منذ وقت طويل.

«انظر انظر، ما رأيك؟ أنا جميل حين أرتدي التشيباو وأضع ذلك العقد الفضي البراق، هل أنا أقل شأنًا من أي امرأة في أي عائلة؟ انظر إلى جسدي هذا، رفيع وطويل، ألا يُعَدُّ جسدًا متناسقًا؟ انظر إلى وجنتيَّ، أليستا بيضاوين مستديرتين؟ لو وضعت عليهما قليلاً من أدوات الزينة، ألن يحبهما الرجال؟ لو استطعت اليوم أن أخرج إلى الناس في هيئة النساء، أؤكد أنني سألفت انتباه الرجال وخاصة تيتوان، تيتوان، أنا أشتاق إلى أن أقف أمامك بهذه الهيئة، هل تجرؤ وقتها على القول: إنك لا تحبني؟».

ظلَّت عيناه مسلَّطة على تلك المرأة في المرآة وقد غرق في خيالاته وعلى وجهه طفت السعادة والرغبة في الضحك؛ لكن حين وقع بصره على الجزء الأسفل من تلك المرأة في المرآة ابيضت وجنتاه فجأة، وطارت الابتسامة من على وجهه كطائر مفزوع؛ في تلك اللحظة أدرك أنه قد أطلق سراح تلك الرغبة الشريرة التي كان قد حبسها، وعلى الفور بحث بيد مرتعشة في جيب ملابسه عن تلك القداحة وأشعل بيد مهزوزة النار في الورقة، ثم حنى جسده وضغط بالورقة الملتهبة في ساقه اليمنى، على الفور انتشرت في المكان رائحة الجلد واللحم المحترقين، وتكوَّنت حبيبات العرق ثانية على وجهه. ووسط ألم الاحتراق الرهيب رأى تلك الرغبة التي تضخَّمت في قلبه تتضاءل بسرعة كقنفذ تعرَّض للضرب حتى عادت في النهاية إلى زنزانتها،

عندها غطى وجهه بيديه وخار على الأرض ثانية.

«يا إلهي، اعف عني، لا أعلم ماذا دهاني، إنني أرغب في أن أكون امرأة! أعلم أنَّني بهذا أخالف ما فطر عليه الإنسان، وأنني أرتكب جرمًا بشعًا، إلا أنني لا أستطيع التحكُّم في نفسي، عاقبني أو دعني أمت، فأنا أعيش في عذاب، لا أستطيع قضاء ليلي ولا نهاري، ولست وحدي المعذب، بيلان أيضًا تتعذَّب معي، أنت لا تعلم كم من دموع سالت منها كل ليل، أنقذنا يا إلهي، أتوسَّل إليك، ألهمنا طريقة ما، هل ارتكبتُ جرمًا في حياتي السابقة؟

وإلا فلماذا وهبتني جسد رجل وقلب امرأة، هل تعذِّبني بتلك الحياة؟ لماذا لم تخلقني رجلاً أو تخلقني امرأة؟ لماذا؟»

وعندما رفع رأسه ليخلع عنه التشيباو كان وجهه غارقًا بالدموع.

وعندما جلس ثانية بذهن حزين مضطرب أمام مكتبه شعر بعطش شديد؛ لكنه لم يرغب في أن ينادي على الخادمة لتحضر الإبريق وتصب له الماء؛ فقد يوقظ هذا بيلان ويجعلها تأتي لتحثَّه على النوم؛ لذا تحامل قليلاً؛ لكنه كلما تحامل على نفسه ازداد عطشًا، وفي النهاية تسلَّل بخفَّة سائرًا تجاه المطبخ ليصب لنفسه بعض الماء.

إن مساحة مينغ ديفو شاسعة، والذهاب لجلب الماء الساخن يتطلَّب المرور من خلف غرفة نومه، كان النور لا يزال مضاء بها، بالتأكيد بيلان لم تنم بعدُ؛ لذا سار بحذر أكبر، وعندما دار عند زاوية البيت متَّجهًا إلى خلف غرفة النوم، أصابه الذعر فجأة؛ فقد رأى رجلاً واقفًا عند النافذة الخلفية لغرفة النوم. لص! كان هذا تقديره الأولي، فكاد على الفور يرفع عقيرته بالصياح؛ لكنه فتح فمه ثم أغلقه ببطء، ففي تلك اللحظة رأى بوضوح ذلك الرجل يرفع يده وينقر بخفَّة على إطار النافذة مرَّتين! فهل يجرؤ اللص على طرق النوافذ؟ بالتأكيد هو ليس بغريب؛ لذا عاد قلبه الذي انتفض بشدَّة منذ قليل إلى موضعه الطبيعي ببطء، مَنْ هذا الذي يطرق النافذة في مثل هذا الوقت؟ تقدَّم نحو الأمام خطوتين، وبمساعدة بصيص الضوء المتسلل عبر فرجات النافذة تعرَّف ذلك الواقف هناك، إنه شاو هينغ الصائغ الصغير بحانوت فو هينغ للحُلِيِّ الفضية.

«فهمتُ، إنه الصائغ الصغير يوصِّل الحُلِيَّ الفضية». ما إن توصَّل إلى هذا الاستنتاج حتى طفت ابتسامة مريرة على وجهه، وفي وسط الظلام بدت تجاعيد تلك الابتسامة المريرة تتراقص على وجهه حلقات تلو حلقات مثل الموج. «يا لبيلان الخبيثة، يا لك من لئيمة، تصنعين الحُلِيَّ الفضية وتخشين أن أراها لذا وصَّيتي الصائغ أن يُوَصِّلها تحت جنح الليل؛ لكن اليوم تصادف وجودي، وأريد أن أرى كم قطعة صنعت». هنا شعر بعشقه للحُلِيِّ الفضية يتماوج في قلبه، فحدَّق إلى يد الصائغ شاو هينغ ليرى ما الذي سيعطيه بيلان عبر النافذة.

انفتحت النافذة الخلفية بلا صوت تقريبًا؛ لكن الغريب أن الصائغ الصغير لم يمدَّ يده ليعطيها أي شيء، على العكس كانت بيلان هي التي مدَّت جسدها عبر النافذة، ثم رآها تقفز منها بخفَّة ورشاقة ثم تستدير لتغلقها خلفها، بعدها أمسكت بيد الصائغ وسحبته خلفها سائرين نحو مكان مظلم، ما الذي ينويان فعله؟ تسمَّر لو داو جينغ في مكانه قليلاً، هل يحتاج توصيل بضع قطع من الحُلِيِّ الفضية كل هذا الغموض والريبة؟ لقد دفعه فضوله لمعرفة الأمر إلى تتبُّعهما في خفَّة.

وتحت شجرة موز في زاوية الحديقة رأى خيالهما يتوقَّفان، فتوارى بجسده خلف ظلِّ شجرة وأرهف آذانه ليتنصت عليهما، كان يتوقَّع أن يسمع صوت صلصلة أو خشخشة الحُلِيِّ الفضية حين يُسَلِّمها إيَّاها؛ لكن هذا لم يحدث؛ بل كان الصوت الذي ترامى إلى مسامعه هو صوت طقطقة، في البداية لم يفهم ماهيته؛ لكن بعد برهة أدرك الأمر، إنه صوت تبادل القبلات بالفم؛ عندها تسمَّر في مكانه: أهذا ما يفعلانه؟ لكنه اكتفى بالتسمُّر دهشة، لم يشعر بالغضب والثورة. وفي تلك اللحظة تحوَّل ظلاهما من اللون الأسود إلى اللون الأبيض، وكان صوت خلعهما لملابسهما يخفت تدريجيًّا حتى تلاشى تمامًا، لقد خلعا ملابسهما تمامًا في العراء، ألا يشعران بالبرد؟ كانت عيناه قد اعتادت تمامًا على الظلام فرأى بوضوح تلك البشرة الداكنة قليلاً وهي للصائغ الصغير، الذي كان قد حَنى جسده منهمكًا في فرش ملابسه على الأرض، بعدها اضطجعت بيلان ذات البشرة البيضاء فوق تلك الملابس في وضعية يعرفها لو داو جينغ جيدًا. وتدريجيًّا عادت حشرات الخريف من حولهما إلى صريرها، لقد كانت حشرات الخريف كثيرة في الحديقة، وعلى رأسها حشرة الكريكت، التي يتميَّز صوتها بالرقَّة والبهجة

كما لو كانت تضع موسيقى مصاحبة لحركة هذين الشخصين.

أما لو داو جينغ فقد حبس أنفاسه وحدَّق بعينيه، ولم يكن اتِّساع عينيه بسبب الغضب، ولم يكن أيضًا بسبب الكره، وإنما بسبب التجديد، هل يمكن لذلك الأمر بين الرجل والمرأة أن يكون بتلك القوَّة والحماسة وبذلك الانغماس، وأن يصل إلى تلك الدرجة من عدم الالتفات إلى أي شيء آخر؟ حتى إنه كاد في مرَّة أو مرَّتين يفتح فمه وينبِّههما أنهما قد ابتعدا عن الملابس المفروشة على الأرض.

في الحقيقة إنهما كانا قد تدحرجا حتى وصلا إلى الأرض العشبية، وظلَّا يتقلَّبان هناك فوق أوراق العشب الرقيقة، ولقد قدَّر أن الكثير من الأعشاب وحبات الطين قد التصقت بجسديهما، وغطت أصوات الأنفاس اللاهثة والتأوُّهات المكتومة على أصوات الحشرات؛ حتى جعلتها أخيرًا تتوقَّف عن العزف ليسود الهدوء جميع الأرجاء، وتزداد حركة جسديهما وضوحًا. ووسط حركتيهما وصخبهما الواضحين، شعر لو داو جينغ براحة لم يعهدها من قبل؛ كما لو أن يدين قد أزاحتا فجأة حملاً من فوق كتفيه كان يجثم على أنفاسه فشعر براحة بالغة؛ فمن الآن وصاعدًا لن أعاني من إجبار بيلان لي، ولن أخشاها بعد الآن، ولن أخاف من حلول الليل. «أيها الصائغ الصغير، أشكرك بشدَّة، لقد سددت بدلاً مني ذلك الشيء الذي لا تتوقَّف تلك المرأة عن طلبه بلا كلل؛ وبالطبع يمكنني أن أرى أنك أيضًا قد حصلت على سعادة في المقابل من جسدها، وتلك المرأة من عائلتنا نحن، عائلة لو؛ لذا وجب عليك أن تدفع ثمن ذلك؛ لكن ما الذي يمكنك دفعه؟ فلتفكر قليلاً، إنك صائغ فضة، يجب عليك أن تفكر ماليًّا»...

غادر لو داو جينغ الحديقة بخفَّة، فعاد أولاً إلى غرفة النوم، كان بابها مغلقًا لكنه غير موصد، والشموع لا تزال مضاءة فيها، وعندما دخل إلى الغرفة كانت تلك هي المرة الأولى التي لا يدخل فيها منكمشًا؛ بل سار بخطوات واثقة، وأمسك بالإبريق المغطى بقماش قطني وصبَّ لنفسه كوبًا من الماء الساخن وشربه مصدرًا صوتًا، ثم جلس على حافَّة السرير شامخًا منتظرًا في هدوء عودة بيلان، لقد قرَّر أن يُفزعها قليلاً، ويلهو معها قليلاً.

أطرق أذنيه حتى سمع خطواتها المتسلِّلة مثل القطَّة تقترب من الباب، وعندما فُتح الباب رأى بوضوح الفزع الذي انتابها فكانت عيناها اللامعتان أشبه بأرنب مذعور يهرب من بندقية صيد؛ لكنها سريعًا عادت إلى هدوئها كأنَّ شيئًا لم يحدث، وقالت بصوت هادئ: لقد ذهبتُ إلى دورة المياه، بعدها ذهبتُ إلى غرفة الكتب كي أنادي عليك، لكنَّني لم أتوقَّع أنك عدت الليلة بتلك السرعة.

«إلى أي دورة مياه ذهبتِ؟» كان يرغب في إجبارها على الحديث، بالضبط كما كانت تُجبره في كل الليالي الماضية على مضاجعتها؛ لكنَّ صوته لم يحمل أي ذرة غضب.

«هل تسأل أيضًا عن أي دورة مياه ذهبتُ إليها؟» كان من الواضح أنها أصيبت بالدهشة، لقد أدهشها سؤاله وأدهشتها أيضًا لهجته الهادئة غير المتعجِّلة.

«لقد جئتُ لتوي من دورة المياه». قالها وهو ينظر مباشرة إليها.

«آه، لقد خرجتُ من دورة المياه وذهبتُ إلى المطبخ لأرى الخادمة».

«الخادمة كانت هنا لتوِّها تصبُّ لي بعض الماء الساخن». حافظ على لهجته الهادئة تمامًا وقد كتم الضحك في قلبه؛ فقد كان يرغب في مشاهدة كيف سيكون ردُّ فعلها.

«أنا...».

«هناك أوراق عشب على شعرك، وعلى سروالك أيضًا».

«حقًّا؟ بالتأكيد التصقت بي حينما استلقيت على العشب قرب المساء».

قالتها وهي تسير نحو المرآة لتنظر إلى نفسها، فرأت الذعر يطفو واضحًا فوق تلك الوجنتين الحمراوين في المرآة.

«ربما لم تلتصق في فترة قرب المساء».

«إذن ما قولك؟ متى التصقت بي؟» قالتها بلهجة أرادتها غاضبة لكن الذعر في عينيها كبر وازداد وضوحًا.

«للتو».

«للتو؟ أي هراء تتفوَّه به؟ كيف يعقل أن أستلقي فوق العشب لتوي؟» اندفعت أسئلتها بسرعة وقلق وقد شحب وجهها حتى ابيضَّ تمامًا.

«لا داعي إلى أن أتحدَّث، هيا اقتربي واخلعي العقد الفضي من رقبتك وأعطينيه كي أحفظه لك، وأعطني أيضًا القرط الفضي وأساور القدم الفضية».

عقدت بيلان حاجبيها محاولة الحفاظ على هدوئها وقالت: «تلك الحُلِيُّ تخصُّني، لماذا أعطيك إيَّاها؟».

«لأنني أحب تلك الحُلِيَّ الفضية، بالإضافة إلى أنك لن تقلقي حيال نقصانها، فهناك مَنْ سيقوم من نفسه بإهدائك غيرها».

«هل أنت ثمل؟ تتحدَّث بالهراء تحت تأثير الخمر؟ مَن الذي سيهديني غيرها من تلقاء نفسه؟».

«الصائغ الصغير».

تلك الجملة كانت أشبه بلكمة قوية سُدِّدت بدقَّة إلى صدر بيلان، فارتدَّت رغمًا عنها إلى الخلف خطوتين.

«هو... لماذا سيوافق على أن يعطيني حُلِيًّا فضية؟» أدركت أن أمرها قد انفضح، إلا أنها بتلقائية أرادت أن تستمرَّ في الإنكار؛ لكن البقية الباقية من لون الدماء الحمراء على وجنتيها انسحبت تمامًا من شدَّة الفزع ليغمر الرعب كل جسدها.

«لو لم يعطك من نفسه، فاطلبي منه تحت شجرة الموز بالحديقة».

تلك الجملة كانت أشبه بسكين قطعت آخر ما تبقى من ثقة بيلان في الإنكار، لقد انحنت فجأة من الرعب وركعت تحت قدمي لو داو جينغ وهي تقول: «لقد فعلناها مرَّة واحدة فقط، اعف عنا...».

هنا فقط سحب لو داو جينغ التعبير البارد المرتسم على وجهه وتنهد قائلاً: «يبدو أنَّني أفزعتكما».

«أتعهد لك بألَّا أذهب إليه ثانية».

«لا يمكن ألَّا تذهبي إليه ثانية». قالها لو داو جينغ بلهجة قاطعة مقاطعًا وعود بيلان. «لو لم تذهبي إليه، ألن تأتي في النهاية لتعذبيني معكِ؟ اسمعي جيدًا، في أي وقت ترغبين فيه في فعل ذلك الأمر فلتذهبي إليه، فقط حاذري أن يعرف والداي بالأمر، فطباعهما حادَّة».

رفعت بيلان وجهها غير مصدِّقة.

«بالطبع، هناك شرط صغير، ألا وهو أنه كل بضعة أيَّام، لنَقُلْ: عشرة أو عشرين يومًا. ستطلبين منه أن يصنع لي قطعة حُلِيٍّ فضية، وهناك أمر آخر، هل يمكن أن تعطيني ذلك العقد الفضي والأساور الفضية وأساور القدم الفضية التي ترتدينها لكي أحتفظ بها من أجلك؟» لقد شعر مرَّة ثانية بالرغبة في ارتداء الحُلِيِّ الفضية والكامنة في أعماق قلبه تفور وتنهض.

مدَّت بيلان المذعورة تمامًا يدها المرتعشة وخلعت العقد من رقبتها والأساور من يديها، وقد صارت دقات قلبها أشبه بالطبول من شدَّة الرعب.

«تلك الأساور جميلة حقًّا». قَرَّب لو داو جينغ الأساور من ضوء الشموع وقلَّبها بين يديه وهو يتنهَّد بسعادة بالغة.

---

1- تشيباو: جلباب تقليدي صيني خاص بالنساء.

# 5

ظلت بيلان طريحة الفراش ثلاثة أيام.

وعلى الرغم من أنها كانت خائفة من افتضاح أمرها مع شاو هينغ، فإن قلبها كان على أمل دائم أن يحالفها الحظ: «إن تحركاتنا سرية، لم أتوقَّع أن ننكشف على الرغم من ذلك، والذي كشفنا هو زوجي».

كانت تعلم أنه لا خطر الآن من انتشار هذا الخبر؛ لكنها شعرت بذلك العار الذي ظلَّ يضغط على جبينها يكبر ويزداد ثقلاً بسرعة البرق، ويضغط عليها لدرجة لم تعد معها قادرة على التقاط أنفاسها.

هذا الشيء المسمى بالعار بدأ يلتصق بجبينها بعد زواجها بقليل، لقد كانت بيلان لا تجرؤ على استرجاع ذكريات تلك الأيام التي قضتها في مينغ ديفو منذ أن جاءت إليه زوجة وهي بعد ابنة السادسة عشرة.

في البداية حين حُملت على هودجها لتدخل إلى مينغ ديفو كانت تحمل في عقلها الكثير من التخيلات الجميلة نحو الزواج، لم تكن تتخيَّل أن بانتظارها ما يقارب من تسع سنوات من حياة زوجية أشبه بحياة الأرامل. ففي ذلك اليوم الذي تزوَّجت فيه وقبل أن تركب هودجها همست أمها في أذنها بنصائح قالتها بوجه محمر: «الليلة لو أراد السيد لو أن يلمسك، فأطيعيه مهما كانت طريقة لمسه، ومهما طلب منك». في تلك الليلة انتظرت في شوق لذيذ يشوبه بعض الخوف أن تمتد يده نحوها؛ ولكنها ظلَّت منتظرة حتى الصباح ولم يلمسها حتى؛ فظنَّت أنه قد أصيب بالجبن والخجل مثلها؛ لذا انتظرت في صبر؛ لكن الانتظار طال حتى وصل إلى نصف عام ولم تجد منه أي حركة أو لمسة؛ وذات مرَّة حين عادت إلى منزل أمها همست جارة عجوز في أذنها مازحة: كم مرَّة يضاجعك في الليلة؟ فاحمر وجهها من السؤال وهزت رأسها نافية بعنف: ولا مرَّة. فهتفت تلك العجوز غير مصدقة: «مَنْ تخدعين؟ بجمالك هذا ستثيرين جنون أي رجل يتزوَّجكِ». كانت هي نفسها لا تفهم الأمر: «هل أنا قبيحة لذا لا يطيقني؟». وظلَّت في حيرة حتى أصابها الذهول حين اكتشفت أنه يحب ارتداء الحُلِيِّ؛ بل إنه كان يسرق حُلِيَّها ليرتديها. فانتهزت فرصة عودتها إلى منزل أمها وأخبرتها بكل تلك الأمور، فشعرت الأم بالعجب الشديد فهذا أمر غير متوقَّع؛ لذا قالت مستنتجة: «إنه يرتدي تلك الحُلِيَّ ليمازحك، أعتقد بنسبة كبيرة أنه رجل خجول للغاية، استمرِّي في الانتظار».

ومن ثم انتظرت ثانية في صبر؛ لكن مرَّ نصف عام آخر وظلَّ هو في كل مرَّة يرقد على الفراش بأدب شديد، وينام بكل احترام دون حتى أن ينظر إليها، فبدأت تشعر بصبرها ينفد، وصار صبرها مختلطًا ببعض الألم؛ فجسدها الذي بدأ يبلغ صارت الرغبة تملؤه، في الماضي كانت تأمل فقط أن يمدَّ يده ويتحسَّسها، أما الآن فقد بدأت تفهم بوضوح أن رغبتها لا تقف عند هذا الحد فحسب، هذا الألم الكامن في قلب الانتظار تضخَّم مع مرور الوقت حتى بدأت تشعر بالدهشة من القوَّة الكبيرة للرغبة المستعرة في جسدها، لقد صار المساء صعب التحمُّل؛ خاصة حينما تراه يخلع ملابسه في هدوء ويضطجع بجوارها في هدوء، فكان الجسد الذكوري هذا يجذبها لدرجة تدفعها إلى أن تمدَّ يدها نحوه، ولقد كانت ترى تلك الرغبة بقلبها أنها قلَّة حياء، فكان وجهها يحمرُّ بسبب شهوتها تلك وجاهدت لكي تكبح جماحها.

لقد كانت ترى دائمًا أن تلك الرغبة منبعها تضخُّم ثدييها، وأن تلك الكتلتين هما ما تصنعان كل هذا السحر، فهي تشعر بهما يتوقان لكي يفركهما أحدهم طوال الوقت؛ لذا لفَّتهما بشدَّة باستخدام شريط قماشي عريض، حتى كانت أحيانًا تجد صعوبة في التنفس من ضيق الرباط؛ لكن ربط صدرها لم يقضِ على تلك الرغبة، فاعتقدت بعدها أن الرغبة منبعها فخذيها، وأن رغبتهما في الانفراج هي التي تصنع هذا الفساد؛ ومن ثَمَّ جدلت خلسة حبلاً وصارت تربط به فخذيها معًا من تحت الغطاء في كل ليلة بعد أن ترقد في الفراش، لقد أرادت بتلك الطريقة المتعبة أن تمنعهما من الانفراج؛ لكن هذا لم يُوصلها إلى هدفها، لقد ظلَّت تلك الرغبة تستعر يومًا بعد يوم، ولم يعد بيدها حيلة أخرى، فعادت إلى بيت أمها وذهبت لتشتكي لجارتها العجوز باكية، وبعد أن زالت دهشة العجوز قالت لها: «إذا لم يلمسك هو، أليس باستطاعتك أن تلمسيه أنت؟».

ومن ثم حاولت أن تعمل بنصيحة تلك العجوز وتأخذ بزمام المبادرة، إنها لا تزال حتى اليوم تذكر ذلك المساء الذي هطلت فيه أمطار ربيعية خفيفة، عندما مدَّت يدها نحوه للمرَّة الأولى، بدا لحظتها كأنه أصيب بدهشة عارمة، فتوارى بعيدًا عنها أولاً ناحية الجانب الآخر من الفراش، وبعدها أَنَّبَها بلهجة غاضبة قائلاً: «ماذا تفعلين؟ ألا تخجلين؟».

ومن وقتها بدأ الإحساس بالذل والعار ينهش قلبها، في تلك الليلة سحبت يدها وقد احمرَّ وجهها؛ لكن في الليلة التالية مدَّت يدها نحوه ثانية، فبدأ في تأنيبها مرَّة أخرى؛ لكنها لم تلتفت إلى توبيخه؛ بل صارت أكثر جرأة وأكثر إصرارًا، لم تعد تأبه لأي شيء وتجاهلت تمامًا ذلك العار الرابض فوق رأسها، ففعلت أشياء لم تكن هي نفسها تتخيَّلها فقد كانت مصمِّمة على أن تصير زوجة بالفعل، وصمَّمت على أن يصير هو زوجًا بما تحمله الكلمة من معنى. في تلك الليالي صارت غرفة نومهما أشبه بساحة معركة؛ وأخيرًا استطاعت أن تهزمه وتُخضعه وتجبره على أن يقوم بواجبه الزوجي، وعندما نظرت مثلها مثل عدد لا يحصى من العرائس إلى دم عفَّتها المنساب فوق غطاء الفراش انفجرت في بكاء مرير، لقد عرفت قبل الزواج من قريناتها ومن عماتها العجائز حتمية هذا الدم والسعادة والشرف الكامنين خلفه، «لكن دمي سال بتلك الطريقة، أليس هذا هو العار والهوان؟».

بعدها صارت تكره الليل، فلحظة حلول الظلام تبدأ أشباح الشهوة المتوارية بجسدها في العبث بها فتشعر بصعوبة في النوم واضطراب، فكانت دائمًا ما تلعن رغبتها تلك وتصلِّي للسماء كي تقتل تلك الشهوة بداخلها، فهكذا لن تصير مضطرَّة إلى استجداء لو داو جينغ؛ لكن الرغبة بدت كأنها تعاندها وتمزح معها، فهي لم تمت؛ بل ازدادت قوَّة وتضخُّمًا، إذن لا مفرَّ، لم يعد أمامها سوى الاستسلام لرغباتها، ولا مناص من إراقة ماء الوجه والتوسُّل إلى لو داو جينغ، ولو لم يُجْدِ التوسُّل نفعًا؛ إذن فهو الإجبار وليصير الليل هو ساحة تلقِّي عقابه، وفوق فراش الزوجية المصنوع من خشب الفويب المطلي باللون الأحمر تعاقب النصر والهزيمة، بالطبع كانت مرَّات الهزيمة أكثر، وأحيانًا تكون ممزوجة بجراح مرعبة؛ فتلك المرَّة التي طلبت فيها من شاو هينغ أن يشتري لها الزرنيخ كانت إحدى نتائج تلك الجراح؛ لقد كاد إحساس الذل والهوان الممتزج بالألم يجعلها تغادر هذا العالم القاسي.

الرعب الذي سببته لها فكرة الموت في تلك المرَّة جعلها تتَّخذ قرارًا جديدًا يتعلَّق بأسلوب حياتها، لقد قرَّرت ألَّا تعيش بهذا الشكل البائس كما كانت تفعل في الماضي، فإنها ستتجرَّأ على الاقتراب من الصائغ الصغير بحانوت فو هينغ للحُلِيِّ الفضية، وستفرِّط في شرفها لتردَّ الصاع للو داو جينغ عقابًا على تعذيبه لها، ستُطلق العنان لشهوتها.

بالطبع هذا القرار لم يأتِ بسهولة، ففي البداية لم تكن تُكِنُّ أيَّ مشاعر للصائغ الصغير؛ بل كانت ترى أنه شخص صادق؛ لذا كان الشعور بالجرم يجثم على قلبها لفعلها ذلك الأمر مع شخص كهذا وفي الوقت نفسه هو ليس زوجها، لقد شعرت بوضوح بذلك العار القابع فوق رأسها يزداد حجمًا وثقلاً.

لكن مع طول وقت علاقتها معه بدأ شعور بالحب الصادق الحقيقي يتولَّد في قلبها تجاهه، لقد خبرت تدريجيًّا من خلاله لطف الرجال ونبلهم، فمداعباته الوقحة، وحضنه الذي يجعلها عاجزة عن التنفس، وفركه وضغطه القويان لجسدها، كل ذلك جعلها تثمل في شعور بالخدر اللذيذ، لقد اتَّضح لها أن حبَّ امرأة لرجل يمكن أن يبدأ من مثل هذا الأمر.

تلك السعادة خففت كثيرًا من شعورها بالجرم، وجعلتها تشعر بالعار الذي فوق رأسها وقد صار خفيفًا؛ لكن اكتشاف زوجها لو داو جينغ لأمرها هي وشاو هينغ جعل السعادة التي حصلت عليها تتبخَّر في الهواء، وجعل الشعور بالعار والهوان يعود ثانية كحجر الرحى ليطبق على أنفاسها.

وعلى الرغم من أن هذا الأمر لن ينتشر في الوقت الحاضر، فإن معرفة لو داو جينغ به تجعل من احتمالية انتشاره أمرًا قائمًا في أي لحظة، لقد طرح الآن شرط صناعة حُلِيٍّ فضية له كثمن للسكوت؛ لكن مَنْ يعلم ما الشروط الأخرى التي سيطرحها لاحقًا؟ إن سمعتها وسلامة شاو هينغ معرضان للتهديد في أي لحظة؛ لذا فهذا الأمر لا يمكن أن يستمرَّ.

«لقد انتهى الأمر، يا شاو هينغ، لنقطع علاقتنا».

عادت حياة بيلان إلى ما كانت عليه في الماضي؛ في الصباح تجلس هادئة في غرفتها لتطرِّز الزهور، وعند الغروب تذهب لتتمشى في الفناء، وفي الليل تخلد إلى فراشها مبكرًا؛ صارت لا تخرج من باب غرفتها إلَّا قليلاً، ولا تخرج من باب الفناء أبدًا، ونادرًا ما تتحدَّث مع الآخرين، أما الاختلاف عن الماضي فتمثَّل في أنها لم تعد تطلب شيئًا من لو داو جينغ، فكانا ينامان على فراش واحد؛ لكنها صارت تتجنَّب أي تلامس بينهما، لقد رغبت في أن تعيش كامرأة بلا شهوات.

لكن تلك الحياة لم يكن بالإمكان أن تستمرَّ طويلاً؛ فبعد ما يقرب من عشرة أيام فقط، بدأ الاشتياق إلى شاو هينغ يتحوَّل إلى ما يشبه سمك القرموط، فاهتزَّ أولاً، ثم تقلَّب، ثم صار يتقافز حتى جعلها عاجزة عن حتى الجلوس في هدوء وجعل ذهنها مضطربًا.

كانت ترغب في إطفاء نار ذلك الحنين.

تذكَّرت القول المأثور القائل: «إن الفراغ يُوَلِّد الشرَّ». فاعتقدت أن سبب تفكيرها الدائم في شاو هينغ يرجع في الأساس إلى فراغها؛ ومن ثَمَّ قرَّرت استخدام الانشغال والإرهاق في العمل لطرد ذلك الفكر؛ فبدأت أولاً بالنزول إلى المطبخ كي تساعد الخادمات على اختيار الخضراوات وغسل الأطباق والعجن وصنع المعكرونة؛ بل حتى كنس الأرض؛ ولكن عند لحظة التوقُّف عما يشغلها كان ذلك الحنين يعود كما كان؛ لذا صارت تذهب إلى الحديقة لتساعد عمال البستان على تقليم الأزهار وفروع الأشجار، ونقل أحواض الزهور، واقتلاع الحشائش الضارَّة؛ لكن ظلَّ كل ذلك بلا نتيجة؛ خاصة حينما كانت عيناها تقعان على شجرة الموز الموجودة في الحديقة؛ التي كانت تُذَكِّرها بوضوح بكل تفاصيل لقاءاتها الأولى مع شاو هينغ؛ مما يزيد من اشتعال نار الذكريات في أعماقها.

وفيما بعد طلبت من الخادمة أن تحضر لها مجرفة، وجرفت قطعة خالية وسط الفناء، وقلَّبت التربة لتزرع الملفوف الصيني، وخلال عملية الحرث تعبت حتى لهثت وتصبَّب جسدها عرقًا، وتخدلت ساقاها وذراعاها لدرجة أنها لم تعد راغبة في تحريكها ثانية، حتى إن حماتها نصحتها قائلة: «لماذا كل هذا؟ لو رغبت في زراعة الخضراوات فاطلبي من الخدم أن يفعلوا ذلك. فردَّت عليها ضاحكة: «أرغب في تحريك جسدي». لكنَّ هذا العمل الشاقَّ لم يستطع أن يدفع خيال شاو هينغ بعيدًا عن قلبها، فكان وجهه يتراقص في ذهنها بحيوية حالما ترتاح قليلاً.

ولقد هداها تفكيرها إلى الراهبات بكنيسة ليجانغ اللاتي لا يتزوَّجن طوال حياتهن، ربما وجب الذهاب إليها وسؤالهن كيف يمكن إنهاء ذلك الحنين المرعب، كانت جدَّة بيلان تعتنق الكاثوليكية، وعلى الرغم من أن بيلان لم تكن تؤمن بها؛ فإنها ذهبت في صغرها عدَّة مرَّات إلى الكنيسة مع جدتها ورأت الراهبات الأجنبيات والصينيات؛ ومن ثَمَّ تذرَّعت بالعودة إلى بيت أمها وذهبت خصوصًا إلى كنيسة ليجانغ الواقعة على بعد خمسة عشر لي[1] شمال غرب مدينة نانيانغ، لم تكن تعرف تعليمات الكاثوليكية؛ لذا لم تجرؤ على دخول الكنيسة خوفًا من ارتكاب مخالفة ما؛ بل ظلَّت تحوم حول بابها من الخارج حتى تصيَّدت أخيرًا راهبة خارجة منها؛ فتوجَّهت نحوها على عجل، كانت تلك الراهبة صينية فسألتها في أدب جمٍّ: «هل هناك ما أخدمك به؟». فسألتها بيلان متلعثمة بوجه محمرٍّ: لو أن شخصًا ما يشتاق دائمًا إلى شخص آخر، فهل تعلمين أي طريقة لوأد ذلك الحنين؟». فصمتت الراهبة برهةً ثم تكلَّمت وقالت ببطء: لو لم يخنِّي استنتاجي، فالشخص الذي يملؤه الحنين هو أنت، والشخص الذي تشتاقين إليه هو رجل. فهزت بيلان رأسها نعم؛ وقد ازداد وجهها احمرارًا. فقالت الراهبة: «هذا الشعور يصعب إيقافه؛ لكن السيدة العذراء مريم ستعطينا القوَّة، دعينا نصلِّي لها». قالتها ثم سحبتها ودخلت بها الكنيسة، وركعت أمام تمثال السيدة مريم؛ وظلت الراهبة تترنَّم بكلمات، أما بيلان فقد ركعت بلا حول ولا قوَّة وهي تنظر إلى السيدة مريم.

لكن في المساء نفسه بعد أن غادرت الكنيسة وجد شاو هينغ طريقه ضاحكًا إلى أحلامها، ولا تدري هل كان السبب هو كونها لم تتعمَّد من قبلُ، أم لأن إيمانها لم يكن خالصًا؛ لذا فكَّرت في طريقة أخرى مخيفة، ففي كل مرَّة ينهض فيها هذا الحنين في قلبها كانت تمدُّ ريشة رفيعة بيضاء إلى داخل حلقها، فكان تلامس ريشة الإوز تلك مع حلقها يتسبَّب لها في كحَّة

جافَّة أو حتى في حالة قيء، فكان الألم في الصدر والبطن والرأس الناتج عن الكحَّة الجافَّة والقيء يُنسيها مؤقتًا كل شيء بما فيه الحنين إلى شاو هينغ، ولقد فكرت في تلك الطريقة المخيفة لأنها ذات مرَّة في صغرها تناولت كمية كبيرة من حبوب الفول، وخشيت أمها أن تصاب بانتفاخ في البطن فاستخدمت ريشة إوزة لكي تدفعها للقيء، فكانت الذكريات المتعلِّقة بألم القيء في تلك المرَّة سببًا جعلها تفكِّر في تلك الطريقة لوأد الحنين؛ لكن فاعلية تلك الطريقة لم تستمرَّ لوقت طويل؛ بل كانت تقتصر فقط على الوقت الذي تتقيَّأ فيه وتستمرُّ بعد القيء لمدة نصف يوم، وما إن يختفي الشعور بالألم وعدم الراحة الناتج عن القيء حتى يظهر في قلبها بوضوح شبح شاو هينغ.

تنهَّدت تنهيدة طويلة، لقد عادت ثانية لنقطة الصفر ولم يعد بيدها أيُّ حيلة؛ لم يعد أمامها سوى طريق واحد لتسير فيه، أن تستسلم لذلك الحنين؛ وبعد ليلتين متتاليتين تقلَّبت فيهما في الفراش بلا نوم صاح قلبها: «شاو هينغ، أنا لا أريد شيئًا، فقط أريدك أنت، أريدك أنت. أنا لا أخشى شيئًا».

وفي ظهيرة يوم مشمس دلفت ثانية إلى حانوت فو هينغ متذرِّعة بصنع حُلِيٍّ فضية، واستعادت ثانية مواعيدها الغرامية مع شاو هينغ.

---

1- وحدة قياس مسافات صينية تعادل 500 متر.

# 6

كانت شمس شهر نوفمبر لا تزال تحمل قليلاً من الدفء، لتصنع بعضًا من حبيبات العرق الكريستالية اللامعة فوق وجنتي بيلان البيضاوين الناعمتين؛ لقد سارت في الطريق متَّجهة إلى حانوت فو هينغ، سارت في هدوء وحرية واسترخاء؛ فمنذ أن قرَّرت أن تستعيد علاقتها مع شاو هينغ دون الاهتمام بأي شيء آخر شعرت بأن الأمر صار هيِّنًا، ففي أي وقت ترغب فيه في رؤية شاو هينغ كان عليها فقط أن تقول للو داو جينغ: سأذهب لأجعله يصنع حِلْيَة فضية لك. ثم تحمل الفضة وتسأله عن الشكل الذي يرغب في صنعه، بعدها تدلف في عظمة إلى حانوت فو هينغ ويتناول شاو هينغ الفضة وورقة مكتوب بها ميعاد اللقاء ومكانه.

أخيرًا صارت هناك نهاية للحياة التي قضتها كأرملة وزوجها على قيد الحياة.

كان حانوت فو هينغ كالعادة يضجُّ بصوت المطارق الأشبه بصوت كرة البنج بونج، والزبائن المنتظرون لصنع الحُلِيِّ الفضية جالسون في صفٍّ فوق الأريكة الخشبية الطويلة، فسارت بيلان بلا صوت وجلست جوار فتاة في نهاية الصفِّ لتراقب في صمت شاو هينغ المنهمك في العمل.

ظلَّت عيناها مسلطتين عليه، وبيلان تنظر إليه وهو ينفخ الكير لصهر الفضة، وتنظر إليه وهو يرفع المطرقة ويهوي بها، وتنظر إليه وهو يُرَصِّع الخواتم الفضية بالأحجار الكريمة؛ كانت تحب مشاهدته هكذا في صمت؛ فقد كان كل لقاءاتهما في العادة مساءً، وكان بإمكانها لمس كل جزء من جسده؛ لكن لم يكن لديها أي فرصة لرؤيته؛ فظلَّت ترقب ساعده القوي المنتفخ بالعضلات، الذي كان مفعمًا بالقوَّة وهو يهوي بالمطرقة، وترقب شفتيه الغليظتين اللتين كانتا تنقبضان وترتخيان مع حركة يده، وترقب ساقيه اللتين تفترشان حشية قماشية وتبدوان في غاية القوَّة وهما تحملان حركات النصف الأعلى من جسده.

وبالتدريج بدأت نظراتها المركزة عليه تحمل بين طياتها حرارة وحبًّا.

لقد صار لديها رجل حقيقي.

ولقد صارت هي أيضًا زوجة حقيقية.

شاو هينغ، يا حبيبي.

أنت من جعلني أدرك أن كوني امرأة هو في الحقيقة أمر بتلك الروعة، أنت من منحني سعادة لم أختبرها من قبل؛ كيف يمكن أن أرد إليك الجميل؟ لدي طريقة واحدة فقط، أن أنجب لك طفلاً. ألست ترغب في ولد يرث حانوت الحُلِيِّ الفضية؟ سأنجبه لك، ولو أنجبت في المرَّة الأولى بنتًا، فسأنجب ثانية حتى أنجب لك الولد حتى أجعل لعائلة تشين وريثًا، لكي يكون لك مساعدًا في صنع الفضة حين تكبر في السنِّ، لقد سمعتُ أباك يتنهَّد من قبلُ متحسِّرًا أنه لم يبحث لك عن زوجة، ألستُ أنا زوجتك؟ أنا لستُ كذلك اسمًا؛ ولكن فعلاً أنا زوجتك، ولو أتى يوم لم يعد فيه لو جينغ رين حاكمًا، ومات لو داو جينغ قبلي، وقتها سأتزوجك مهما كان عمري، وسأصير زوجتك في العلن.

«سيدتي، ما نوع الحُلِيِّ التي ترغبين في صنعها؟» وجَّه شاو هينغ بصره ناحيتها وسألها.

سألها والاحترام يبدو عليه فطار شبح ابتسامة ساخرة على وجه بيلان مثل صقر يصطاد سمكة من على سطح الماء وفكرت: «يا لك من متصنِّع جيد!».

«أرغب في صنع زوج من الأساور»، ثم ناولته الفضة الملفوفة في ورقة.

«أي شكل ترغبين في صنعه؟».

«تنينان متشابكان».

«كم وزنها؟». «لياغ واحد لكل سِوَار»[1].

«بهذا الثقل؟ هل ستتحمَّلين ارتداءها؟» قالها شاو هينغ وقد اتسعت عيناه.

فأجابته بيأس: «أنا أحبها بهذا الثقل».

فقد كان هذا الشكل وهذا الثقل من اختيار لو داو جينغ؛ لذا لم تجرؤ على تغييرهما، فلو أغضبته فستكون العواقب وخيمة، بالطبع كان صهر مائة جرام من الفضة لصنع سِوَارين هو أمر يوجع القلب؛ لكن ما العمل؟ لقد اعتقدت في البداية أن اشتراط لو داو جينغ إهداءه قطعة من الحُلِيِّ الفضية كل عشرة أو عشرين يومًا مقابل سماحه بعلاقتها مع شاو هينغ هو أمر هيِّن، فما العسير في ذلك مع مهارة شاو هينغ في صنع الفضة؟ لكن مع مرور الوقت شعرت تدريجيًّا بثقل هذا الشرط، فشاو هينغ لم يكن ليقبل أجر صناعة الفضة؛ لكن ماذا عن الفضة نفسها؟ فقد كانت الحُلِيُّ التي يطلبها لو داو جينغ هي أكبر مقاسًا، فكيف يمكن أن يكفي المصروف الذي تعطيها إيَّاه حماتها كل شهر؟ هل تذهب لتطلب من أمها؟ ولكن أنَّى لأمها بتلك الفضة؟ هل تشرح الأمر لشاو هينغ؟ فهي حتى اليوم لم تكن قد أخبرته بمعرفة لو داو جينغ بأمر علاقتهما السرية، لقد خشت أن يفزعه الأمر، بالإضافة إلى أن قلبها لم يطاوعها أن تخبره فهي تعرف كمَّ المشقَّة التي يتكبَّدها هو وأبوه لكي يكسب أجر صناعة الحُلِيِّ، لقد رأت بعينيها الظروف الصعبة التي يعيشها الأب وابنه؛ لكي يدَّخرا المال اللازم لتوسعة الحانوت، لم تكن لتسمح لشاو هينغ لأن ينفق نقوده التي كسبها بعرقه وجهده على هذا الأمر.

سأفكِّر في حلٍّ بنفسي.

«تفضَّلي، لنأخذ مقاس اليد». ومدَّ شاو هينغ حبلاً في يده؛ فقد كان يطلب دائمًا من الزبائن أن يتركوا مقاسهم؛ لكي يضمن صُنْع الأساور بشكل مناسب؛ لكن بعد القياس قالت بيلان: «تذكَّر أن تصنعهما أكبر قليلاً».

«إذا صارت أكبر لن تكون مريحة في اليد».

«اصنعها كما أقول لك». قالتها بلهجة زبونة مهمَّة، فهزَّ شاو هينغ رأسه موافقًا؛ ولكن الشكَّ تسرَّب إلى قلبه: «لماذا تصنع سِوَارًا بهذا الحجم وهذا الثقل؟ ألم أهدها في البداية زوجًا من الأساور الفضية دقيقة الصنع؟ لقد صنعتهما بدقَّة وإتقان وبالتأكيد ستكونان رائعتي الجمال في يديها».

«لا تنسَ أن تأخذ الفضة». قالتها بيلان وهي ترمق بطرف عينيها زبونتين جاءتا بعدها، ثم أومأت إلى شاو هينغ ببصرها منبِّهة إيَّاه ألَّا ينسى أن ينظر إلى ميعاد اللقاء المكتوب على الورقة الملفوف بها الفضة، ثم استدارت خارجة من الباب، وقد كانت خطواتها في طريق العودة متثاقلة فقد بدأت في التفكير إلى أين تذهب للحصول على الفضة؛ كي تُشبع رغبات لو داو جينغ التي لا تنتهي تجاه الحُلِيِّ الفضية، «لو داو جينغ، أيُّها الشيء المغطَّى بجلد رجل، لماذا لديك تلك الهواية الغريبة؟».

نوبة من رياح الشتاء حوَّلت الحديقة الخلفية لمينغ ديفو إلى عالم صاخب، ما بين حفيف فروع الأشجار المتمايلة وسط الرياح، وقرقعة الروطان وهو يميل ليلامس الأرض، وطقطقة الأفرع الجافَّة وهي تتكسَّر بفعل الرياح، ووسط كل هذا يمتزج صوت سقوط آنية زهور وتحطُّمها على الأرض، كل هذا جعل هذا المكان الفريد عند وجود أي شخص فيه يصير صاخبًا.

أمَّا الليل فقد مدَّ سدوله خطوة بخطوة وسط هذا الصخب؛ تلك الأصوات الصاخبة غطَّت على صوت تأوُّهات السعادة وصوت اللهاث الثقيل القادمين من تلك الغرفة الصغيرة في زاوية الحديقة التي يضع فيها عمال البستان بعض المعدَّات.

لقد تراخت بيلان في راحة بالغة بين أحضان شاو هينغ، وبدأت الرياح الباردة تمدُّ مخالبها من بين فرجات الباب، لتتحسَّس برفق جسديهما الملتهبين اللذين ارتاحا لتوِّهما.

ارتعشت بيلان فشدَّ شاو هينغ ذراعيه اللتين تحتضناها: «هل تشعرين بالبرد؟».

«لا». قالتها بيلان وزادت من التصاق وجهها بصدره.

«ارتدي ملابسك، حاذري أن تصابي بالبرد». ثم بدأ في إلباسها ملابسها.

«هاك القرط الذي طلبتِه منِّي». وفي الظلام أخرج من جيبه زوجًا من الأقراط ووضعه في يدها. «هل يمكنك أن تتحسَّسي شكله؟ إنه على شكل العنب، في كل جانب ثلاث حبَّات دقيقة من العنب، بالتأكيد سيكون جميلاً حين ترتدينه».

كان ينتظر منها استحسانًا؛ لكنها لم تفعل؛ بل سمع فقط صوت تنهيدة خفيفة.

«ما الأمر؟ ألا يعجبك؟». قالها وقد اعتراه بعض القلق.

«إنه جيد، جيد حقًّا، أشعر بهذا من لمستي له». قالتها مثنية عليه؛ لكنه كان يسمع ثناءها وقد نقصته السعادة.

«لو لم يعجبك يمكنني أن أصهره وأعيد صنعه».

«إنه حقًّا يعجبني».

«إذن سأرحل؟».

«ارتدِ ملابسكَ جيدًا».

«حسنًا».

«دعني أرَ».

«حسنًا».

«هيا ارحل، خذ حذركَ وأنت تعبر الجدار».

ثم نظرتْ إليه وهو يفتح الباب بخفَّة وينسلُّ عبره، وتابعته ببصرها وهو يختفي وسط الظلام ووسط صفير الرياح.

تنهَّدت مرَّة أخرى، فالفضة المستخدمة لصنع هذا الزوج من الأقراط كانت آخر فضة تمكَّنت بيلان من الحصول عليها؛ لو لم تعد هناك حُلِيٌّ فضية تقايض بها لو داو جينغ فهل سيفضح ذلك الأمر؟ شعرتْ بغصَّة باردة تعتصر صدرها وارتعشت مرَّة ثانية.

لقد صار من المحتَّم الآن التفكير في طريقة ما؛ لكن يا إله السماوات، أين يمكنني الحصول على الفضة؟

نهضت من مكانها متَّجهة نحو الخارج وهي غارقة في التفكير، ونتيجة لعدم انتباهها لخطواتها تعثَّرت قدمها بعتبة الباب فسقطت خارجه، وما إن رأتها الرياح العاصفة وقد سقطت على الأرض حتى استغلَّت الفرصة وألقت بكومة من الأتربة والرمال فوق جسدها.

ارتعد جسدها بقوَّة.

كان كل شيء في منزل «لو» يخضع لقواعد، حتى تناول الطعام، وكانت قواعد تناول الطعام ثلاثًا: الأولى هي تقديم الطعام في مواعيد محدَّدة، وما إن يحلَّ موعد تناول الطعام حتى يقف الطباخ في الفناء ويهتف: صار الطعام جاهزًا! عندها يجب على كل أفراد الأسرة أن يخرجوا فورًا ويجلسوا إلى المائدة، ومَنْ يتأخَّر يحدجه لو جينغ رين بنظرة قاسية، تلك النظرة كفيلة بأن تقلِّل كمِّيَّة طعامك إلى النصف، أما القاعدة الثانية فهي أن الأماكن ثابتة، فلكل فرد من أفراد الأسرة مكان ثابت لا يغيِّره على مائدة الطعام، ولا يستطيع أحد تبديل مكانه، فكان لو جينغ رين يجلس في صدر المائدة وعلى يمينه زوجته وعلى يساره الابن الأكبر لو داو جينغ وزوجته بيلان، أما نهاية المائدة فيجلس إليها الابن الأصغر وزوجته. والقاعدة الثالثة هي أنه لا يسمح أثناء تناول الطعام لأي أحد بالحديث إلا لو جينغ رين إذا سأل عن أمر ما. ولم تكن بيلان معتادة على تلك القواعد المتعلِّقة بتناول الطعام في بداية مجيئها إلى منزل «لو»، فكانت تشعر دائمًا بشيء ما يضغط على رأسها؛ لذا كانت لا تأكل حتى الشبع تقريبًا في كل الوجبات، ولم تعتد الأمر إلا بعد عدَّة سنوات.

في ذلك المساء بعد أن رُصَّ الطعام المكوَّن من حساء القمح والخبز والخضراوات وبدأ الجميع في تناول الطعام ارتطمت يد حماتها بالطبق فانقلب، وسال الحساء فوق المائدة حتى تساقطت بضع نقاط منه على ساق السيدة العجوز، فاحترقت قليلاً؛ ومن ثَمَّ توقف الجميع عن تناول الطعام، وعاونت بيلان وزوجة الابن الأصغر التي تزوَّجها حديثًا العجوز للوصول إلى غرفتها، وعندما كانتا تسندانها لكي تستلقي فوق الفراش، لمعت عينا بيلان فجأة؛ فقد كان الصوان بجوار سرير حماتها نصف مفتوح، وبداخله الكثير من القطع الفضية مفروشة بلا نظام. يا للسماء! لو أخذت قطعة من الداخل ألن يحلَّ ذلك كلَّ مشاكلها؟ بالإضافة إلى أنه بطريقة وضع الفضة في الصوان بلا نظام فإنها لن تكتشف ضياع قطعة منها، إلَّا أنَّ تلك الفكرة أرعبتها: ألا تعدُّ تلك سرقة؟ لكن لو لم أسرق فما الحلُّ؟ لو لم تعد لديَّ حُلِيٌّ فضية أعطيها لو داو جينغ فربما غضب وأخبر أباه وأمه بأمري أنا وشاو هينغ، وقتها ألن تكون تلك نهايتي؟ بالإضافة إلى أن عائلة لو عائلة غنيَّة، فهل تعني بضع قطع فضية أيَّ شيء بالنسبة إليهم؟ ولو فكَّرنا من ناحية الاستخدام فأنا أسرق الفضة من أجل ابنهم، وهذا ما ندعوه بأنَّ صوف الغنم ينمو على أجساد الخراف، فابنهم طلب منِّي حُلِيًّا فضية لذا من الطبيعي أن آخذ الفضة من أبيه.

بعد أن عقدت بيلان العزم في تلك اللحظة اختارت اللحظة المناسبة للتنفيذ عندما تذهب لرعاية حماتها بعد تناول الطعام، فحضَّرت أولاً أوراقًا للفِّ الفضة، لقد سمعت من قبلُ أن الأهم في السرقة هو عدم ترك أي آثار، وفي المساء جاءت الفرصة، فعندما سندت حماتها؛ كي تذهب إلى دورة المياه تذكَّرت حماتها أنها نسيت إحضار المناديل؛ ومن ثَمَّ قالت بيلان: «أنا سأذهب لإحضارها». وعادت من فورها إلى غرفة حماتها، وبعد أن التقطت المناديل أخرجت تلك الورقة التي أعدَّتها سابقًا للفِّ الفضة وفردتها على يدها، والتقطت بأصابعها المغطاة بالورقة قطعة فضة من الصوان، ثم قبضت عليها لتلفها وتضعها في جيبها، ثم عادت إلى دورة المياه وقلبها يخفق بقوَّة، وناولت حماتها المناديل، التي لم تلاحظ هي أو الخدم تغيُّر حالتها. وفي اليوم التالي حين ذهبت لرؤية حماتها، عاملتها الحماة كما تعاملها في العادة بشكل طبيعي، بدا من الواضح أنها لم تكتشف ضياع تلك القطعة من الفضة، عندها فقط أطلقت تنهيدة ارتياح.

قطعة الفضة تلك أنقذت حاجتها لبضعة أيام؛ لكن قطعة واحدة من الفضة يستحيل أن تصنع الكثير من الحُلِيِّ، لقد وجب عليها أن تستمرَّ في الحصول على الفضة.

بعد النجاح الأول صارت بيلان أكثر ثقة، فانتظرت بلا هلع الفرصة التالية؛ يقول المثل الشعبي: «السارق القريب يصعب ردعه». ولكون بيلان زوجة الابن الأكبر؛ لذا كان دائمًا لديها الفرصة لدخول غرفة حماتها، وفي اليوم الذي ذهبت فيه حماتها إلى معبد شيان مياو جوان لتصلِّيَ أخذت مرَّة ثانية من صوانها قطعة فضة.

بالطبع كان قلبها مملوءًا بالرعب وهي تفعل ذلك؛ لكنها كانت حين تسير في اتجاه حانوت فو هينغ كان الرعب يمَّحي تمامًا من قلبها ليملأ مكانه الفرح.

يا لروعة تلك الأيام! يا إله السماوات، امنحني الاستمرار في العيش بهذا الشكل.

---

1- اللينغ: وحدة وزن صينية تعادل خمسين جرامًا.

# 7

جلس لو جينغ رين في القاعة الداخلية بمنزله على كرسيه ذي المساند المصنوعة من الأبنوس وقد علا وجهه تعبير بارد، ونظره مسلط إلى الأرض أمامه كعمود من الثلج، لقد كان غاضبًا، فكل ما حدث اليوم لم يكن به أمر واحد على ما يرام، فقرب الظهر أرسل محافظ «شيه» شخصين ليوصلا إليه سلَّة من تمر جوانغنانغ هدية؛ لكن هذين الشخصين كانا غبيَّيْن ولا يفقهان شيئًا، فلم يدخلا بالسلَّة مباشرة إلى القاعة الداخلية في المنزل؛ بل ذهبا بها إلى المكتب الحكومي، «فلو رأتني كل تلك الأعين بالمكتب وأنا أتلقَّى هدية أليس هذا بمنزلة تلطيخ بالحبر للافتة «مينغ ديفو»؟ من حسن الحظِّ أن سرعة بديهته ألهمته وقتها بحسن التصرُّف، فأرسل مبعوثًا إلى بيته ليجلب الفضة، ودفع على مرأى من الجميع ثمن سلَّة التمر وفقًا لسعر السوق لهذين الشخصين، وبهذا صار الأمر كأنه عملية شراء؛ لكن مَنْ كان يتوقَّع أنه عندما يحمل مبعوثان من المكتب السلة لتوصيلها إلى منزله فإنهما سيتعثَّران في درجات السلم وتنقلب السلة، فوقع منها أكثر من مائة ليانغ من الفضة، وقتها سبب له ذلك حرجًا لا يضاهى. كان قد توقَّع من البداية أن محافظًا لن يهديه مجرَّد سلَّة من التمر فقط؛ لكن بعد أن انكشف الأمر كيف يمكن له أن يقبل هذا؟ لذا سبَّ ذلك المحافظ وطلب من مبعوثيه أن يحملا هديته ويعودا بها. لا يمكن أبدًا أن أسمح بتلطيخ اسم «مينغ ديفو».

بعدها في فترة بعد الظهر وبعد أن انتهى من الحديث في بعض المسائل العامة مع نائب الحاكم قال له نائب الحاكم فجأة وعلى وجهه ابتسامة غير مريحة: «لقد اكتشفت فتاة رائعة الجمال في الشارع المحاذي للنهر، لو أراد السيد أن يتزوَّج للمرة الثانية فيمكنني أن أرتِّب الأمر». عندها ودَّ أن يبصق على وجهه قائلًا: «أنت تعلم أنني قد أقسمت من قبل ألَّا أعدد الزوجات، لكنك مصرٌّ على الحديث في الأمر، لو كنت حقًّا متفهمًا لي، ألم يكن بإمكانك أن تفكر في طريقة أخرى؟».

أما الأمر الآخر المزعج فقد حدث للتوِّ، ما إن عاد من العمل وجلس في البيت ليستريح حتى جاءت زوجته وأخبرته أنه في عصر اليوم السابق وضع ابنه داو جينغ مشبكًا فضيًّا في شعره وارتدى عقدًا فضيًّا وحلقانًا وارتدى أساور فضية في يديه وارتدى تنورة بيلان المزيَّنة بالورود وظلَّ يتمايل أمام المرآة، ولقد رآه الابن الأصغر وزوجته.

«يا لهذا الفاسق! إنه مصرٌّ على تدمير سمعة العائلة».

«أبي، هل طلبتني؟». في تلك اللحظة دلف داو جينغ إلى الغرفة بخجل في أعقاب أمه، التي كانت قد أخبرته للتوِّ أن أباه أرسل في طلبه فعرف أن الأمر قد ساء، وأن أخاه أو زوجة أخيه قد أخبرا أبيه بأمر تزيُّنه بملابس النساء أمس؛ كانت بيلان قد أعطته بالأمس مشبك شعر متقن الصنع على شكل جندب ثم خرجت؛ أما هو فقد أخذته النشوة ففكَّ ضفائر شعره ومشَّطه على شكل كعكة عالية مثل النساء، ثم غرس فيه مشبك الشعر، وتدريجيًّا أيقظ ذلك المشبك وتلك التسريحة تلك الرغبة في التحوُّل إلى امرأة؛ التي كانت غافية في أعماق قلبه، ولقد رأى الخادمات كلهن قد ذهبن إلى الفناء الخلفي، وبيلان ليست بالمنزل؛ لذا قرَّر الترويح عن نفسه وترك العنان لها، فأخرج الحُلِيَّ الفضية وأخرج أيضًا قطعة الملابس التي يراها الأفضل لدى بيلان وارتدى كلَّ هذا، ثم وقف أمام المرآة ليتمتَّع بصورته، لقد كان يعتقد أنه لن يأتي أحد في ذلك الوقت؛ لذا لم يُغلق النافذة؛ لكن مَنْ كان يتوقَّع أن أخاه الأصغر وزوجته جاءا إلى الفناء الأمامي في تلك اللحظة فرأيا كل ما فعله عبر النافذة، وعندما سمع صوت ضحكات زوجة أخيه المندهشة من خلف النافذة ارتعب حتى ابيضَّ وجهه، أمَّا أخوه وزوجته فلم يطرقا الباب؛ بل غادرا مباشرة، أما هو فقد خبط على رأسه ندمًا وبدأ في عقاب نفسه على إطلاقه العنان لتلك الرغبة، فأشعل القداحة وأشعل بها ورقة ثم غرسها في ساقه؛ كان عقابه لنفسه بالأمس هو أقسى مرَّة يعاقب فيها نفسه، حتى صارت الحروق في ساقه عميقة وكبيرة، لدرجة أنه اليوم يسير بعرج.

لم يلتفت لو جينغ رين إلى سؤاله؛ بل أشاح بيده لزوجته لكي تغادر المكان، فمن عادته الدائمة ألا يسمح بوجود طرف ثالث حينما يعالج مشكلات الأسرة، ولا يسمح أبدًا باقتراب الخدم؛ وذلك لتجنُّب انتشار أخبار الأسرة للخارج مما يؤثِّر في سمعة العائلة.

«أبتاه، أنا أعمل بجدٍّ في مصلحة الغلال، لم أرتكب أي خطأ». قالها لو داو جينغ وهو ينظر إلى وجه أبيه المتجهِّم محاولاً تغيير محور الحديث.

«أنا لم أسألك عن عملك في مصلحة الغلال، أنا فقط أسألك، هل ارتديتَ الحُلِيَّ الفضية وملابس النساء مرة أخرى بالأمس؟». كان صوته خفيضًا يخشى أن يسمعه أحد.

« أنا.. أنا.. أنا.. كنت فقط..».

«طاخ» هوى لو جينغ رين بعصًى كان قد استعدَّ بها في يده على مؤخِّرة داو جينغ، كانت ضربته قوية للغاية حتى إن العصا انكسرت لثلاث قطع، طارت إحداها حتى السقف ثم سقطت حتى كادت تسقط على نصب الأسلاف، أما الثانية فقد انغرس طرفها المدبب في لحم مؤخرة داو جينغ فاندفعت الدماء القانية منها.

«أي» أطلق داو جينغ صرخة ألم؛ لكنه عضَّ على أسنانه وكتمها بسرعة فهو يعلم أن أباه لا يحب سماع صوت بكاء أبنائه وبناته.

«تكلم، لماذا تحبُّ ارتداء الحُلِيِّ الفضية وملابس النساء؟».

مسح داو جينغ دموعه في خوف وقال: «لأن..».

«تكلم».

«عندما أرتدي الحُلِيَّ الفضية وأرى نفسي أُشبه النساء ينتاب قلبي شعور جميل».

«جميل؟».

«أيْ يشعر قلبي بالراحة، وبالسلام».

«هراء». صرخ لو جينغ رين وضرب بعنف على مسند مقعده حتى كاد يكسره: «يا للسماء! لماذا جعلتني أنجب مثل هذا الحقير؟ أي رجل في هذا العالم يرغب في أن يلبس مثل النساء؟ لماذا يحبُّ رجل ارتداء حُلِيِّ النساء؟ ولماذا يحدث هذا الأمر العجيب في أسرتي أنا خاصة؟ من أين أتى هذا المرض العجيب؟ ربما وجب عليَّ من البداية أن أعرضه على طبيب؟ في البداية عندما اكتشفت أن ابني لديه حبٌّ لارتداء حُلِيِّ وملابس النساء، وقد اقترحت زوجتي عرضه على طبيب، لكنَّني خشيت إذا عرف الطبيب بمرض ابني العجيب أن ينقل الخبر مما يؤثِّر في سمعة عائلتنا، لقد اعتقدت دائمًا أنه عندما يكبر ويتزوَّج سيتحسَّن، لم أتوقَّع أنه على العكس سيصير أسوأ، هل إذا بحثت عن طبيب الآن فسيجدي هذا نفعًا؟ لكن مَن يضمن أن الطبيب لن يخبر أحدًا بعد أن يعرف بهذا الأمر الغريب؟ أين سأواري وجهي عن الناس إذا علم أهل مدينة نانيانغ بأن لدي ابنًا بهذا الشكل؟

«أبي، اقتلني، أنا أيضًا لا أرغب في العيش، وأعلم أن القيام بهذا هو فعل حقير ويجلب العار، هو أمر يسوِّد وجهك ووجه أمي، لكنَّني لا أملك من أمري شيئًا، إن قلبي يتعذَّب أيضًا، هيا اقتلني».

تخشب لو جينغ رين في جلسته، وبعد فترة طويلة تكلَّم وقال: «هل تعاملك بيلان جيدًا مؤخَّرًا؟ هل تشاجرتما؟».

خشي داو جينغ أن يتعمَّق أبوه في السؤال عن تفاصيل أخرى؛ لذا سارع بالإجابة: «بيلان ممتازة، لم نتشاجر من قبل».

فتنهَّد لو جينغ رين، يبدو أن الحياة ستستمرُّ بهذا الشكل، فلنحافظ فقط على ألا يخرج الخبر من البيت وسيسير الأمر على ما يرام. فبالنسبة إليه لم يعد يضع أملاً على داو جينغ وبيلان في أن ينجبا وريثًا يحمل اسم عائلة «لو»، لقد تزوَّجا منذ سنين طويلة ولم ير منهما ابنًا أو حتى نصف ابنة، ولقد خمَّن السبب منذ وقت طويل؛ هو يعلم أن هذا أمر شاقٌّ على بيلان؛ لكن لتشقى طوال حياتك، فعائلة «لو» ليس لديها حيلة أخرى، فإذا بقي داو جينغ دون زواج فهذا سيجلب علينا كلام الناس، من حسن الحظ أن أسرة بيلان أسرة صغيرة، ولقد اختار من البداية فتاة من أسرة صغيرة لتصير زوجة ابنه؛ لأنه

كان يخشى من تقلُّبات ما بعد الزواج، فابنة أسرة كبيرة إذا تزوَّجت زوجًا مثل داو جينغ هل يمكن أن تصمت؟

«أبي، أريد أن أغادر بحثًا عن رزقي حتى لا أُغضبك أنت وأمي ثانية، ولأدع بيلان تبحث عن شخص تقضي معه حياتها، سأغير اسمي ولقبي ولن أدع أي شخص يعرف أنَّني ابنك، ممكن؟».

«ترهات» صرخ لو جينغ رين، ثم استطرد قائلاً: «أنا الحاكم الحالي العظيم أسمح لابني أن يهيم على وجهه؟ لو تسرب هذا الأمر أين أداري وجهي من الناس؟ إلى أيِّ قاع ستنهار سمعتي؟».

«سأذهب خلسة إلى معبد طاوي، وأعمل راهبًا هناك، ممكن؟».

«اخرس، ما من حائط لا تتسرَّب منه الرياح، لو انتشر هذا الخبر فسيصير الأمر أسوأ، ستمكث في البيت بأدب، وتذكَّر أمرين، الأول: هو أن تكبح جماح نفسك، فأيُّ شخص لديه شهوات لا يمكن البوح بها للآخرين، المهمُّ أن يتعلَّم كبحها، في الواقع إن كل مَنْ يعيش في هذا العالم يكبح بعض شهواته، وإلا لعمَّت الفوضى العالم، أما الثاني فهو أن تتعلَّم الإخفاء، لا يجب أن تخبر أي شخص من خارج الأسرة بالأمر، يجب أن تفكِّر في طريقة لإخفاء الماضي، يجب أن تتعلَّم فعل الأشياء في الخفاء، ولا تسمح لأي شخص أن يعرف ماذا تفعل، لن تستطيع أن تخفي الأمر عن بيلان، يمكن ألَّا تخفي عنها شيئًا؛ لكن يجب أن تخفي الأمر عن الخدم بالمنزل، فهذا أمر يتعلَّق بسمعتك».

«أنا لا أرغب في أي سمعة، إنني أرغب فحسب في أن أعيش بضع سنوات في سعادة وفقًا لرغباتي، يا أبي، إنني إنسان، وأنت لا تسمح لي بالمغادرة، فهل يمكن أن تسمح لي أن أعيش لمدة سنتين وفقًا لرغباتي؛ أي لا تتدخَّل في أي أمر أفعله، فقط سنتان وسأكون ممتنًّا للغاية؛ لكي لا أكون قد جئت إلى هذا العالم بلا طائل؛ فقط مرَّة واحدة وبعدها سأتقبَّل الموت بنفس راضية، ولن..».

«أيها الوغد». صرخ لو جينغ رين بغضب مقاطعًا إيَّاه وهو يضرب بيده بقوَّة مسند الكرسي: «إن لم تُرِدِ السمعة فأنا أريدها، أنت لستَ وحدك هنا، إنك ابن الحاكم، هل تفهم؟ إنك ابني».

«لكن رب السماء إذا ما سمح بحياة مَنْ هو على شاكلتي، فلا بُدَّ أن له منطقًا في ذلك، هل يمكن...».

لم ينطق لو جينغ رين بكلمة أخرى؛ بل حدج ابنه بنظرة باردة صارمة، فكانت تلك النظرات أشبه بصمغ ألجم على الفور فم داو جينغ، فتراجع مغادرًا وفرائصه ترتعد خوفًا، أما لو جينغ رين فقد ظلَّ جالسًا بلا حراك، وبعد فترة طويلة رفع عينيه لتستقرَّ قلَّة الحيلة القابعة في نظراته بسقف الغرفة مثل عش السنونو.

كان لو جينغ رين بعد أن ينهي عمله كل يوم يذهب إلى غرفة الكتب ليطالع بعض الكتب لو لم تكن هناك أمور عائلية ليعالجها، لقد قرأ بالطبع «سجلات التاريخ» وقرأ «فنون الحكم»، وقرأ أشعار ليباي ودوبو؛ لكن أكثر ما قرأه كانت كتب الحرب، فهو دائمًا ما يرى أن عمله كسياسي أشبه بالحرب؛ لكنه لا يستخدم فيها البنادق والسيوف؛ ولكن يستخدم فيها الدهاء والتخطيط. فأيُّ سياسي ذلك الذي لا يشنُّ حروبًا مع خصومه السياسيين؟ ولو لم ينتصر عليهم لتقدَّمُوا نحوه خطوة تلو الأخرى، ألن تكون تلك هي نهايته؟ لكن يجب معرفة من أي جهة سيشنُّون الهجوم، وأي وسيلة سيستخدمونها، وأي طريقة سيستخدمها هو لصدِّ الهجوم، ويجب أيضًا تجهيز عدَّة خطط للحرب، فكيف يمكن فعل كل هذا دون قراءة كتب الحرب؟ بالإضافة إلى كيفية معالجة الموظف الحكومي للأمور بشكل يرضي رؤساءه ويحظى بتأييد العامة، تلك الإجابات أيضًا يمكن الوصول إليها عن طريق كتب الحرب؛ لذلك فقد جمع تقريبًا كلَّ كتب الحربِّ وظلَّ يستذكرها ويدرسها مرَّات ومرَّات.

قرب مساء ذلك اليوم، جلس في غرفة الكتب يقرأ «استراتيجيات دونغ جونغ الثلاث» وفجأة دخلت زوجته إلى الغرفة راكضة على عجل، وصاحت: «كارثة، هناك لصٌّ في منزلنا».

«انظري إلى هيئتك المذعورة تلك، هل وصل اللصُّ إلى غرفة الكتب؟ اجلسي وتحدَّثي على مهل، أين هذا اللصُّ؟». لم يحرِّك

لو جينغ رين ساكنًا؛ بل ظلَّ جالسًا في مكانه يُمسك بكتابه.

«أذكر بوضوح أنني وضعت بالأمس عشر قطع فضية في الصوان المجاور لفراشي، كنت قد جهزتها لشراء مقبرة في مسقط رأسنا، ولكنَّني حين ذهبت في الصباح لأخذها اكتشفت غياب قطعة منها، أعتقد بنسبة كبيرة أن أحد الخدم قد فعلها، هؤلاء الحثالة تجرَّؤُوا على السرقة في منزلنا، فلنفتِّشهم على الفور، نفتِّشهم ذاتيًّا ونفتِّش مساكنهم».

«اهدأي قليلاً». حدَّق إلى زوجته وهو يقول: «أولاً: الأشياء التي يُخَبِّئها اللصُّ لن يستطيع ولو عشرة أشخاص أن يعثروا عليها، ثانيًا: التفتيش العلني للخدم ألن ينشر خبر وجود لصٍّ في بيتنا؟ كيف ستصير سمعتنا؟». «إذن ما العمل في رأيك؟».

«تظاهري بعدم اكتشاف الأمر، ودعي باب الصوان كما كان عليه، وضعي المزيد من الفضة فيه، وافعلي كل ما كنتِ تفعلينه في المعتاد، فقط راقبي بدقَّة، فأيُّ لصٍّ إذا ما نجح في سرقة مكان ما، فإنه في العادة يأتي ثانية».

«حسنًا».

«تذكَّري، حتى لو اكتشفتِ أيَّ خادم هو اللصُّ، فلا تمسكيه في وقتها، وإلا فلن نستطيع تجنُّب الجلبة والضجَّة؛ بل تراجعي في صمت، هل فهمتِ؟».

وبعد ثلاثة عشر يومًا وقرب العصر عندما كان لو جينغ رين يطالع كتاب «أسئلة وإجابات متبادلة بين لي جينغ والإمبراطور الأول لأسرة تانغ» في غرفة الكتب، دخلت عليه زوجته ثانية على عجل وقد شحب وجهها وهي تهتف: «هل تعلم مَنْ هو اللصُّ سارق الفضة؟

« مَن؟».

«بيلان، يا للسماء! لا ينقصها طعام ولا ملبس، كيف لها أن تفعل هذا الأمر؟».

«هل أحسَّت بك؟».

«لا».

«تذكَّري، استمرِّي كما أنت في التظاهر بعدم اكتشاف السرقة، وأغلقي الصوان كما كان، وضعي الفضة كما كنت تفعلين، يجب أن نفهم لماذا تسرق، هل تجمع مالاً خاصًّا لنفسها؟ أم تساعد أسرتها؟ وراقبي تحرُّكاتها مراقبة دقيقة».

«مَنْ سيراقبها؟ أنا؟».

«هل تقترحين إخبار شخص ثالث؟».

«حسنًا؟».

في الوقت المتبقِّي من مساء ذلك اليوم لم يقرأ لو جينغ رين كتب الحرب؛ بل ظلَّ جالسًا طويلاً إلى مكتبه مفكِّرًا: «لماذا تسرق بيلان الفضة؟». ولقد شعر بغريزته أنها لم تسرقها لاحتياجها الشديد للمال.

لقد استغرق الأمر نصف شهر من زوجته لكي تثبت استنتاجه هذا؛ وفي إحدى الليالي أخبرته بالنتيجة، لقد عادت لتوها من موقع الحدث وجذبت كتاب «الاستراتيجيات الست» من يده لاهثة وهي تقول: لقد عرفتُ، إنها تسرق الفضة لتعطيها الصائغ الصغير بحانوت فو هينغ لكي يصنع لها حُلِيًّا فضية، ثم تأخذها بعدها وتعطيها لو داو جينغ، وبذلك يمكنها أن تخدعه بها وتعمي عينيه، فهناك علاقة آثمة بينها وبين هذا الصائغ الصغير. لقد جاء إلى هنا الليلة، إنهما تحت شجرة الموز في الحديقة، لا يمكنك تخيُّل مدى جرأتهما، إنك لا تعلم مدى سفالة تلك المدعوَّة بيلان، لقد وقفتُ بالقرب منهما، وسمعتُه يسألها: «هل الأمر ممتع». فأجابت وسط تأوُّهاتها» «كأنَّني أطير وسط السحاب». إنهما لا يزالان هناك لم ينتهيا بعدُ، هل نجلب الآخرين ونمسك بهما؟ نمسك بهما متلبسين بالزنا، إنهما...».

قاطعها لو جينغ رين قائلاً بهدوء: «حسنًا، أعتقد أنه يجب عليك الذهاب للنوم، لقد أظلمت السماء ويبدو أن عينيكِ قد

خدعتاكِ».

«لا، لقد رأيتُ الأمر بوضوح...».

«إذن فلتكتمي الأمر في صدرك وتنسيه تمامًا، لقد كبرنا في السنِّ، وهناك بعض الأشياء التي ينبغي أن نتعلَّم نسيانها، هيا اخلدي للنوم لقد تأخَّر الوقت، يجب أن نخلد للنوم». ثم أغلق بقوَّة الكتاب بين يديه.

مرَّت الأيام في مينغ ديفو هادئة كالعادة كأنَّ شيئًا لم يحدث.

وبعد سبعة أو ثمانية أيام وفي الصباح بينما كان لو جينغ رين يتناول فطوره قال لزوجته فجأة كأنه تذكر شيئًا: «صحيح، حاكم مدينغ كايفينغ السيد ليو سمع أن الحُلِيَّ الفضية في نانيانغ مشهورة، فأرسل بالأمس أحدهم ببعض الفضة لكي يصنعها الصاغة له حُلِيًّا فضية؛ لا تنسي أن ترسلي مرسالاً إلى حانوت فو هينغ لكي يبعثوا صائغًا يصنعها هنا في بيتنا لكي نفحص وقتيًّا ما إذا كانت الحُلِيُّ مصنوعة بشكل جيِّد أم لا؟ فعلى أي حال لقد كلفنا أحدهم بالأمر، فلا يمكن أن نتهاون فيه، ويمكن أيضًا أن نصنع للأطفال قطعة حُلِيٍّ لكل منهما». قالها وهو يشير بعصى الطعام في يده إلى زوجتي ابنيه.

أما زوجته العجوز فقد هزَّت رأسها بسرعة موافقة على كلامه.

ظهرت السعادة على وجه زوجة الابن الأصغر لحظة سماعها لكلماته، أما بيلان فكانت أكثر سعادة، فهي تعلم أنهم إذا ذهبوا لدعوة صائغ من حانوت فو هينغ فإن مَنْ سيأتي هو بالتأكيد شاو هينغ، وهذا أمر رائع حيث يمكنها أن تراه طوال ساعات النهار. وكان السبب الآخر لسعادتها هو أن حماها قد وافق على أن يصنع لها هي أيضًا حُلِيًّا فضية، فبوجود تلك الحُلِيِّ يمكنها أن تُلبِّيَ طلبات زوجها، ولن يكون مطلوب منها أن تحاول جلب الفضة، على الأقل خلال الأيام القريبة القادمة.

وفي ظهيرة ذلك اليوم، أرسلت السيدة العجوز رسولاً ليدعو تشين شاو هينغ إلى المنزل، وعندما رأته بيلان يدلف من باب البيت حاملاً أدوات صنع الفضة كادت تندفع نحوه من فرط سعادتها؛ لكنها لم تجرؤ على ذلك؛ بل جاهدت لتضع على وجهها تعبيرات محايدة غير مبالية، حتى وضع شاو هينغ أدواته في الغرفة الجانبية وبدأ العمل، حينها سحبت زوجة الأخ الأصغر وذهبتا لتقفا بجواره.

استمرَّ شاو هينغ في العمل بمنزل «لو» لمدة يومين، كان يتناول فيهما وجبتي الغداء والعشاء هناك؛ وكانت تلك من الأعراف المتّبعة في أوساط الأجراء، أن يأكلوا في المنزل الذي يعملون فيه. ولقد لاحظت بيلان أن الطعام الذي يقدمونه لشاو هينغ لا يختلف عن الطعام الذي يأكله باقي أفراد الأسرة، من الواضح أن السيدة العجوز لم تكن تعامله مثل الأجراء العاديين؛ بل كانت تذهب بنفسها إلى المطبخ وتلقي بتعليماتها للخدم كي يقدموا له هذا وذاك؛ بل أحيانًا ما كانت تجهِّز له الطعام بنفسها، وتنادي على بيلان وزوجة الابن الأصغر كي يقدماه لشاو هينغ.

وفي عصر اليوم الأول نادى لو داو جينغ فجأة على بيلان لتذهب معه إلى غرفة النوم، وشدَّد عليها قائلاً: «غير مسموح بأي علاقة مع شاو هينغ في هذين اليومين، يجب اتِّخاذ الحذر، إيَّاك أن يلاحظ أبي أو أمي أي شيء». ولقد نظرت بيلان إلى ملامحه الممتلئة بقلق ندر أن تراه ثم قالت ضاحكة بهدوء: «ليطمئن قلبك، أنا لست بحمقاء».

كان لو جينغ رين في غاية الرضا عن الحُلِيِّ الفضية التي صنعها شاو هينغ، وعندما همَّ شاو هينغ بالرحيل، أثنى عليه كثيرًا ثم أعطاه مكافأة عبارة عن بعض الفضة المكسورة زيادة فوق أجره.

بعدها، أصبح من عادة مينغ ديفو أن يدعو شاو هينغ ليأتي إلى المنزل كل عدَّة أيام ويظل هناك لبضعة أيام، تارة لكي يصنع حُلِيًّا فضية لزوجة حاكم شينيانغ، وأحيانًا لكي يصنع الحُلِيَّ لبنات حاكم أنيانغ، وتارة أخرى ليصنع الحُلِيَّ لقريبات القائد العسكري بمقاطعة خينان؛ فكان شاو هينغ سعيدًا جدًّا بهذا العمل، فمن ناحية تلك الأعمال أجورها عالية، والأهم أنها تثبت أن تأثير حانوت فو هينغ في توسُّع مستمرٍّ، وسمعته في ارتفاع. لكن تلك الأعمال كانت متعبة للغاية؛ فقد كان

يدقق فيها فوق دقتها خشية أن يجد السيد الحاكم عيبًا بها؛ لذا كان بعد عمل كل يوم يصير غير راغب في الحركة من شدَّة التعب؛ حتى إنه في ذلك المساء حين انتهى من عمله وحمل أدواته على كتفه عائدًا إلى البيت خارت قدماه حتى كاد يسقط في الشارع؛ وقتها عضَّ على شفتيه في دهشة ولام نفسه قائلاً: «لم أكن أتخيَّل أن قوَّتك لا تتحمَّل هذا التعب القليل».

# 8

كان الصائغ المسنُّ حين يرى بيلان ترمي ورقة مضمومة إلى جوار ساق ابنه يعلم أنها بالتأكيد رسالة تواعده فيها للقاء ليلاً؛ تلك الأوراق تجمَّعت حتى صار لديه كومة منها، وكان دائمًا ما يرى ولده يُقَرِّب تلك الورقة إلى أنفه ويتشممها ليلاً.

فكان في كل مرَّة يُطلق تنهيدة حارة ويُراقب خيال بيلان وهي تبتعد ثم يهزُّ رأسه في صمت، إلى متى سيستمرُّ هذان الخاطئان في علاقتهما؟ هل يوجد في العالم حائط لا تتسرب منه الرياح؟ بالإضافة إلى أن الجوَّ صار باردًا، لقد تساقطت حبات الثلج اليوم، وقلَّ عدد الزبائن، لقد دخلت صناعة الفضة في فصل الركود. فعندما يحل البرد في الشتاء، لا تكشف النساء عن رقابهن وسواعدهن وأقدامهن وحتى آذانهن؛ لذا لن يرى أحدٌ الحُلِيَّ الفضية لو ارتدينها؛ لذلك يقل عدد الزبائن ويبدأ فصل الركود، وبعد أن غادر الزبونان اللذان أتيا بعد وجبة الإفطار ولم يعد في الحانوت أي شخص غريب، رأى الصائغ المسنُّ ابنه بطرف عينيه وهو يفتح تلك الورقة بحذر، ثم ضحك وهو يقرؤها، بعدها قرَّبها من شفتيه وقبَّلها.

توقَّف الصائغ المسنُّ عن انتزاع الزوائد بالمبرد وسأل بصوت خفيض: هل دعتك ثانية؟

«نعم» ابتسم شاو هينغ لأبيه بطرف فمه، فهو يعلم أنه لا يستطيع أن يخفي شيئًا أمام نظراته.

«في هذا البرد؟».

«لا تقلق، إننا نلتقي في غرفة صغيرة بزاوية حديقة منزلها، الجو دافئ هناك».

«لكنك لا ترى وجهك كم هو أصفر وهزيل».

فخفض شاو هينغ عينيه، لقد شعر بالفعل بافتقار جسده للقوَّة مؤخَّرًا، حتى إن ساقيه صارتا رخوتين حين يسير.

«وأنت تسعل أيضًا».

«كح كح كح» أطلق شاو هينغ وابلاً طويلاً من السعال بدا كأنه إثبات لكلام أبيه.

«مهما كان الطعام جميلاً لا يمكن أن تأكله كثيرًا، إن الفطائر المحشوة بلحم الخنزير رائعة؛ لكن جرب أن تأكل منها عشرة أطباق، ستنتفخ بطنك وتتلوى على الأرض ألمًا».

«أبي..».

«هذا الأمر الذي لا ينتهي، كم لديك من المَنِيِّ والدماء؟».

«أبي..».

«كم من رجال ألقوا بدمائهم وعظامهم في هذا الأمر، وكم من رجال فقدوا حياتهم في هذا الأمر».

«أبي، أتوسل إليك».

«هل تعلم ما هو المني؟ إنه أثمن شيء في جسد الرجل، فلو أكلت عشرة أطباق من المعكرونة فلن يصنع ذلك ملعقة صغيرة منه، أما أنت فعلى العكس، تسكبه بلا حساب».

«يا أبي، اسمعني، تلك المرَّات الأخيرة التي التقيتها فيها لم نفعل شيئًا».

«هل تخدعني؟ رجل وامرأة يلتقيان تحت جنح الظلام..».

«حقًّا، هي التي ترفض أن نقوم بالأمر».

«نعم؟».

«إنها تخشى عليَّ؛ فقد رأتني هزيل الجسد كما لو كنت مريضًا؛ لذا قالت: إن الأيام القادمة كثيرة، لننتظر حتى يقوى

جسدك وبعدها ستكون لي».

«إذا لماذا تواعدك للقاء؟».

«تقول: إنها تشتاق إليَّ لحد الجنون، وحين نلتقي نتبادل الأحضان والقبلات فحسب، بالإضافة إلى ذلك فأنا أيضًا أشتاق إليها».

«إذن ما الذي حل بجسدك؟ إنك بالفعل كمن أصابه المرض».

«صداع، فقط أشعر بصداع، وقليل من الدوار، أما السعال فهو متقطِّع، أعتقد أنَّني قد أصبت بالبرد، لكننا في المرَّات الأخيرة التي التقينا فيها لم نخلع ملابسنا، ودائمًا ما أنام في أحضانها، لا أعرف كيف أصبت بالبرد».

اذهب إلى حانوت أدوية «لي شينغ تانغ» لكي يكشف عليك الطبيب ليو».

«سأتحامل عدة أيام وأجرِّب، فلست راغبًا في تناول حساء الدواء الصيني ذاك».

فتنهَّد الصائغ المسنُّ وأحنى رأسه وانهمك في العمل ثانية؛ وفي المساء حين خلدا للنوم شعر بأن سعال ابنه قد ازداد عنفًا، فغرق في النوم بقلب غير مطمئن، وفي المنام رأى مجموعة من السحب السوداء تتطاير في اتجاهه، وبين السحب يختبئ طائر أسود غريب الشكل، هذا الطائر الغريب له مخالب حادة، وظلت السحب تقترب حتى كادت تصل فوق رأسه، وفجأة اخترق الطائر الغريب السحب وهو يطلق صرخات حادَّة، ومد مخالبه نحوه واختطف طائرًا صغيرًا كان يحتضنه في صدره. فهبَّ من النوم مفزوعًا.

اكتشف الصائغ المسنُّ أن جسد ابنه يزداد هزالاً مع الوقت، كما أنه صار غير مستقرٍّ نفسيًّا، فكان دائمًا ما يجلس قليلاً ثم يهب واقفًا، ويقف قليلاً ثم يجلس ثانية، وهكذا يحتاج إنجاز أي عمل إلى وقت طويل منه.

شعر المُسِنُّ بالارتباك، فأخذه عدَّة مرات إلى حانوت أدوية «لي شينغ تانغ»؛ لكن الطبيب عجز عن استيضاح سبب هذا المرض، فكتب له بعض الأدوية؛ لكن لم يكن لها تأثير يذكر.

أما بيلان فقد ظلَّت تأتي كل بضعة أيام، وقد بدا من الواضح أنها لاحظت أيضًا ازدياد المرض عليه، فلم تعد تواعده للقائها؛ بل صارت تكتب على الورقة كلامًا مثل: اعتن بنفسك! قبلاتي، أشتاق إليك. وعندما يصادف عدم وجود زبائن كانت لا تهتمُّ بوجود الصائغ المسنِّ في المكان وتندفع لتحتضن شاو هينغ وتُقَبِّل وجهه وهي تهتف بعيون محمرة: «ما الذي أصابك؟ يا للسماء، لماذا أصابتك بالمرض؟» وفي كل مرة تقريبًا وقبل أن تغادر تخرج من جيبها بعضًا من الفضة المكسورة وتدسها في يد الصائغ المسنِّ قائلة: «يا جدي، خذها لكي تعالج شاو هينغ».

عندما رأت بيلان هيئة شاو هينغ الضعيفة الهزيلة تألَّم قلبها وودَّت شراء أي شيء يمكن أن يصلب عوده، وبالصدفة ذات مساء عندما طلبتها حماتها لغرفتها كي تعطيها بعض النصائح المتعلِّقة بحياكة الملابس، دخل عليهما حماها لو جينغ رين وهو يحمل بين يديه علبة مملوءة بالجينسينغ وأعطاها لحماتها قائلاً: «إن ذلك جينسينغ فاخر من أفضل الأنواع كان قد وصى أحدهم ليحضره له من شمال شرق الصين، وهو رائع لتقوية الجسد، لتحفظيه كي نستخدمه فيما بعد لصنع حساء الدجاج». ولقد أخذت حماتها العلبة ووضعتها في ذلك الصوان الصغير بجوار الفراش الذي تضع فيه الفضة، في تلك اللحظة رقص قلب بيلان فرحًا: «لقد سرقت الفضة الموجودة بهذا الصوان، فلماذا لا أبحث عن فرصة مناسبة لسرقة بعض من الجينسينغ كي أعطيه شاو هينغ كي يقوى به جسده؟ تلك العلبة المملوءة لآخرها لن يلاحظ أحد لو سرقت منها بضعة أعواد».

وفي اليوم التالي، وجدت بيلان الفرصة سانحة لتتسلَّل إلى غرفة حماتها وتسرق أربعة أعواد من الجينسينغ، وفي مساء اليوم نفسه، أخذت تلك الأعواد الأربعة، ومعها دجاجة اشترتها من الشارع ودلفت إلى حانوت فو هينغ، وصنعت بنفسها طبقين من الحساء مستخدمة نصف دجاجة ونصف عود من الجينسينغ ثم حملتهما بنفسها إلى فراشه وأطعمته بيديها؛ وعندما

رآها الصائغ المسنُّ تفعل كل هذا احمرَّت عيناه تأثُّرًا. وقبل أن تغادر أوصته قائلة: يا جدي، لقد وضعت الجينسينغ المتبقي في برطمان صغير على الرف، سأعود ثانية وأجلب دجاجة أخرى بعد يومين. فردَّ عليها المُسِنُّ قائلاً: حسنًا حسنًا.

ظلَّ شاو هينغ في مرضه طويلاً، أما حساء الدجاج بالجينسينغ فلم يظهر أي نتائج لتقوية جسده، وقبل أن يشرب حساء الدجاج المصنوع بالعود الثالث من الجينسينغ اشتد عليه المرض بسرعة فائقة. كان هذا قرب مساء أحد الأيام وبعد أن انتهى المسنُّ من إطعام ولده حساء الدجاج بالجينسينغ بقليل، دخل شاو هينغ في نوبة سعال عنيف، وظل وجهه يزداد شحوبًا، وعندما نزل عن فراشه ليقضي حاجته سقط منكفئًا على وجهه أمام الفراش، فهبَّ المسنُّ بسرعة واحتضنه وأعاده إلى الفراش، وظلَّ يفرك أسفل أنفه وهو يصيح حتى أفاق شاو هينغ، وما إن أفاق حتى قال: إن صدره يؤلمه ويشعر بصعوبة في التنفس، فأسرع المسنُّ لإحضار الطبيب، الذي جاء وجسَّ نبضه ثم كتب له دواء، وأوصى ألا يُترك المريض وحيدًا فهناك احتمال أن يشتد المرض أكثر.

في تلك الليلة جلس المسنُّ جوار فراش ولده محدِّقًا تحت ضوء الشموع الخافتة إلى وجنتيه التي لا يبدو عليهما أثر الدماء، لقد عجز عقله عن تفسير كيف يمكن لابنه قويِّ البنيان موفور الصحَّة أن يمرض فجأة حتى يصير على تلك الهيئة؟ هل السبب هو ذلك الأمر الذي فعله مع بيلان وقد فعله بقوَّة شديدة أدَّت لإيذاء جسده؟ لكن كل مرَّة يتواعدان فيها كان المسنُّ يعلم بأمرها، كانت مرَّة كل عشرة أيام تقريبًا، وفي أقرب المرَّات كانا يلتقيان كل ثلاثة أو أربعة أيام، وهذا رقم لا يعدُّ كبيرًا بالنسبة إلى سنِّ شاو هينغ، يمكن أن يتحمَّله، فالصائغ المسنُّ رجل ذو خبرة، وهو يعرف جيدًا إذا ما كان عدد مرَّات القيام بهذا الأمر مكثَّفًا أم لا؟ فكيف يمكن لولدي أن يتدهور لتلك الدرجة؟ يا إلهي، لو كنت ترى أن هذا الأمر شائن ويستحقُّ العقاب، فلتعاقبني أنا، أنا الذي لم أمنعهما من البداية، أنا الذي لم أزوِّج شاو هينغ مبكرًا ممَّا جعله يغرم ببيلان، فلتنزل عقابك بي، أو لتمتني حتى، فليس لديَّ ابن سواه، وأسرة تشين تعتمد عليه في حمل اسمها وتوارث حرفة صناعة الحُلِيِّ الفضية، أتوسل إليك ألا تؤذيه ودعه يتعافى سريعًا.

وفي منتصف الليل سقى المسنُّ ابنه الدواء ثانية وفقًا لتعليمات الطبيب، وعندما رآه ممددًا ويجد صعوبة في التنفس ضمَّه إلى أحضانه لينام بين ذراعيه؛ وقرب حلول الفجر سقط المسنُّ نائمًا من شدَّة التعب، وما إن غرق في النوم حتى رأى تلك السحب السوداء التي تتطاير في حلمه كثيرًا في تلك الأيام، تلك السحب السوداء تحركت ببطء تجاه أعلى رأسه، وهذا الطائر الأسود الغريب ظهر ثانية بين السحب السوداء، وصاح صيحة واحدة ثم اندفع بقوَّة نحوه ومدَّ مخالبه الحادَّة تجاه صدره، فأطلق المسنُّ صيحة فزع وهبَّ من ذلك الكابوس، وفي تلك اللحظة شعر بجسد ابنه ينتفض قليلاً، فخفض رأسه على عجل ينظر إليه وقد ظنَّ أن حركته أفزعت ابنه، وما إن وقع بصره عليه حتى تسمرَّ مبهوتًا، لقد انقطعت أنفاس شاو هينغ وشخصت عيناه.

«أيتها السماء، إنك لظالمة، ليس لديَّ ابن سواه». رفع المسنُّ عقيرته بالبكاء، حتى أفزع صوت بكائه الجيران من حوله، حينها فقط أتوا وانتزعوا جثة شاو هينغ من بين أحضان المسنِّ.

أما بيلان فقد جاءت تحت جنح ظلام اليوم التالي وقد اتشحت بخمار أسود واندفعت إلى حانوت فو هينغ، وقتها لم يكن بالغرفة سوى الصائغ المسنِّ ساهرًا بجوار جثمان ولده، فارتمت بجوار التابوت وهي تنتحب؛ لكنها لم تجرؤ على رفع صوتها، فقط حبست صوت بكائها في حلقها، ولما حبسته كثيرًا وفاض بها تمرَّغت أمام التابوت.

وعندما رآها المسنُّ بهذا الشكل خشي أن تؤذي نفسها من شدَّة البكاء، فتقدَّم نحوها ناصحًا إيَّاها لتكف عما تفعله وتُسْرِع بالعودة قبل بزوغ الضوء.

وفي ظهيرة اليوم الثالث دُفِنَ تابوت تشين شاو هينغ، لقد اشترى المسنُّ لولده أفضل أنواع التوابيت، ودعا أفضل الفرق الجنائزية، وصنع له أكمل الأوراق الجنائزية[1]، لقد استخدم المسنُّ كل الفضة التي ادَّخرها لتوسعة الحانوت في جنازة ابنه، فما الفائدة من ادِّخارها؟ وما الفائدة من إعادة تشطيب الحانوت؟

وعندما هيل التراب فوق التابوت هبَّت فجأة رياح ليست بالقويَّة ولا بالضعيفة، وجلبت الرياح معها سحبًا سوداء ابتلعت الشمس، التي كانت ساطعة منذ قليل، فاقشعرت أبدان الرجال الذين كانوا يحفرون القبر؛ ورفع المسنُّ رأسه في تلك اللحظة فشعر أن حجم تلك السحب وشكلها يشبه كثيرًا تلك التي رآها في حلمه منذ عدة أيام؛ وخُيِّل إليه أنه يسمع صوت ضحكات قادمة من بين السحب، فهزَّ رأسه يمينًا ويسارًا وقد ساوره الشك أن أذنيه أصابتهما علَّة ما.

---

1- مجسمات ورقية تستخدم في الجنائز على أشكال بيوت وأدوات يستخدمها المتوفى في العالم الآخر.

# 9

وذات مساء بعد عدة أيام من دفن شاو هينغ، جاءت بيلان مرَّة أخرى، ومسحت دموعها وأخرجت من صدرها قطعة من الفضة وضعتها فوق الطاولة وقالت متلعثمة: «يا جدي، خذ قطعة الفضة تلك لتساعدك على المعيشة، ومن الآن فصاعدًا اعتبرني زوجة ابنك، أنا سأعيلك وسآتي لرؤيتك كل بضعة أيام».

لم ينطق الصائغ المسنُّ بكلمة، فقط هزَّ رأسه رافضًا؛ فلقد صار زاهدًا في أمور الدنيا، هو فقط يرغب في الموت مبكرًا كي يلحق بولده.

وعندما رأت بيلان المسنَّ لم يتناول العشاء، بدأت في إشعال النار لتصنع له العشاء بنفسها.

من حسن الحظِّ أن العام الجديد قد اقترب، ولقد جلب الجيران بعض المأكولات للمسنِّ ووضعوها على المائدة، هناك فطائر الخضراوات وفطائر الحبوب، وهناك دجاجة مغسولة جيدًا وهناك قطعة من لحم الخنزير، ولقد تذكَّرت بيلان أن الجينسينغ الذي أتت به لتقوية جسد شاو هينغ لا يزال باقيًا منه عود موضوع في البرطمان الصغير، فقطعت نصف دجاجة، وقطعت نصف عود من الجينسينغ وأعدَّت للمسنِّ طبقين من حساء الدجاج بالجينسينغ، ثم سخَّنت فطيرتين ووضعت كل هذا على الطاولة الصغيرة بجوار فراش المسنِّ.

«عودي إلى بيتك، لقد تأخَّر الوقت». أطلق المسنُّ تنهيدة موجِّهًا كلامه إلى بيلان، التي كانت تخشى هي أيضًا أن يكتشف الآخرون وجودها هنا؛ لذا لم تجرؤ على البقاء طويلاً، فألقت ببضع كلمات سريعة أوصته فيها أن يأكل طعامه ويحافظ على صحته، ثم خرجت من الباب على عجل، أمَّا المسنُّ فلم تكن له شهية للطعام، فظلَّ ينظر إلى البخار الساخن المتطاير من حساء الدجاج والفطائر؛ لكنه لم يمس منه شيئًا.

وعندما حلَّ الصباح قفزت تلك القطة الرمادية بالمنزل إلى الطاولة ولعقت خلسة بعضًا من حساء الدجاج بالطبق، فرآها المسنُّ الجالس على فراشه ملتحفًا غطاءه لكنه لم يعرها أي اهتمام، إلا أنه وبعد فترة وجيزة بدأت تلك القطة في التقلب فوق الطاولة وهي تطلق صرخات ألم، تلك الصرخات غير الطبيعية لفتت أخيرًا انتباه المسنُّ فنظر بتعجُّب إلى تلك القطة: «ماذا حلَّ بك؟ بضع لعقات من الحساء فعلت بك كل هذا؟ هل الحساء به سمٌّ أم ماذا؟». في تلك اللحظة ازدادت صرخات القطة ألمًا، وزادت سرعة تمرُّغ جسدها، وفي النهاية اصطدمت بطبق الحساء فسقط على الأرض، ولقد جذب صوت الارتطام الكلب الأسود الجالس خارج باب غرفة النوم، فدخل إلى الغرفة ورأى حساء الدجاج مسكوبًا هناك فلعق منه القليل ومضغ بعضًا من الدجاج؛ ولكن بعد قليل بدأ الكلب الأسود هو الآخر في التمرُّغ على الأرض وإطلاق صيحات الألم، عندها جحظت عينا المسنُّ فزعًا: «ما الذي بهذا الحساء؟ هل به سم حقًّا؟».

أصابته رعشة بسبب تلك الفكرة.

سريعًا ما ارتدى معطفه وذهب إلى الموقد، لقد كان يراقب بيلان وهي تعد حساء الدجاج بالأمس، وكان ما استخدمته في صنعها هو ماء من الحوض وبصلة وبضع ملاعق من الملح وقطعة من الزنجبيل ونصف دجاجة ونصف عود من الجينسينغ، الماء والبصل والملح والزنجبيل كلها أشياء كانت موجودة في المنزل من البداية، لا يمكن أن يكون بها مشكلة، أما ما يثير الشك فهو فقط الدجاجة التي جاء بها الجيران والجينسينغ الذي أتت به بيلان، ومن أجل التأكد من ذلك الاستنتاج الذي جال في خاطره التقط نصف الدجاجة ونصف عود الجينسينغ وخرج بخطوات سريعة في اتجاه حانوت الأدوية، وطلب من الصيدلي أن ينظر إلى تلك الأشياء ليرى إذا ما كان بها سمٌّ أم لا؟ فأخذ الصيدلي الأشياء منه ودخل بها إلى حانوته، وبعد إجراء عدَّة اختبارات خرج وأخبره: «الدجاج ليس به سمٌّ، الجينسينغ نُقِعَ من قبلُ في الزرنيخ؛ ولكن كمية السمِّ قليلة، لن تسبِّب الموت إذا ما تناولته مرَّة واحدة؛ ولكن تناوُله لمرات متتالية..».

وقف المسنُّ مذهولاً في مكانه، حتى إنه لم يسمع باقي كلام الصيدلي، لقد تذكَّر صبيحة ذلك اليوم الربيعي منذ فترة طويلة

عندما طلبت بيلان من شاو هينغ أن يشتري لها الزرنيخ. يا لتلك المرأة، لقد عقدت العزم منذ ذلك الوقت على تنفيذ مخطَّطها! حينها رأى يدًا تمسك بقطعة قماش لتمسح ببطء لوحًا من الزجاج المغطَّى ببخار الماء، والآن صار سبب موت ابنه المختفي خلف الزجاج واضحًا أمام عينيه، لقد تسمَّم ببطء بسبب شرب حساء الدجاج المصنوع بالجينسينغ المسمم.

بيلان، يا لك من امرأة سوداء القلب، لقد أغويت ولدي، وفي النهاية قتلتيه بالسم، هل خشيت أن يفضح بغاءك؟ أم صرت في علاقة مع رجل آخر؟

«بعد أن سممت ولدي، كنت تريدين أن تقتليني أنا أيضًا بالسم».

«هههههه» فجأة أطلق المسنُّ ضحكة تقشعرُّ من صوتها الأبدان.

«إن عين الرب ليست بعمياء، لقد أرسل قطة لتخبرني بسبب موت ولدي».

في ذلك اليوم بعد أن رجع المسنُّ إلى حانوته، أغلق الباب وأخرج بهدوء غريب قطعة من الفضة ثم جلس إلى منضدة الأدوات وأمسك بكير الفضة الذي لم يُمسك به منذ زمن بعيد وبدأ في النفخ لصهر الفضة.

حبس المسنُّ نفسه في الحانوت لعدة أيام؛ وبعد عدَّة أيام وقرب المساء خرج أخيرًا من باب الحانوت وهو يُمسك بيده لفة من الورق، وسار في اتجاه مينغ ديفو، في ذلك الوقت كانت عائلة لو قد انتهت من تناول الطعام، وعندما سمع الخدم أن المسنَّ قد جاء لتوصيل بعض الحُلِيِّ الفضية للسيدة الصغيرة أشاروا له إلى مسكن بيلان.

في ذلك الوقت كانت بيلان تجلس وحدها في غرفة النوم وتقرأ بلا تركيز كتابًا ما، أما زوجها لو داو جينغ فقد ذهب كعادته من البداية إلى غرفة الكتب كي يستمتع بحُلِيِّه الفضية، وعندما رأت الصائغ المسنَّ يدفع الباب ويدخل أصابتها الدهشة وصاحت: جدي، لماذا...؟».

لكن المسنَّ قاطعها ضاحكًا: «بينما كنت أرتب أشياء شاو هينغ وجدت طوقًا فضيًّا به حُلِيٌّ معلَّقة، كان موضوعًا أسفل وسادته، وملفوفًا في ورقة مكتوب عليها أنه صنعه من أجلك؛ لذا جئت لأجلبه لك». كان يتحدَّث وهو يُغلق الباب خلفه وينزل المزلاج كما لو كان يخشى دخول أي شخص آخر. بعدها فتح لفافة الورق التي بيده فظهر طوق رقبة فضي لامع رائع الجمال، ثم ناوله لبيلان التي مدَّت يدها المرتعشة لالتقاطه وقد احمرَّت عيناها في لحظات؛ ثم قرَّبت الطوق من ضوء الشموع لتتفحَّصه فأذهلها جماله ودقَّة صنعه؛ فقد رأت جسم الطوق ملفوفًا بسلاسل فضية فبدا أشبه بالطوق وفي الوقت نفسه أشبه بالسلسلة، أما الجزء الذي تتدلي منه العليقات فقد نقش عليه اسمها، وحوله الكثير من أزهار الفاوانيا المتفتحة.

«ارتديه لتجربيه، لو كان مناسبًا فلن يذهب جهده سدى».

تجمعت الدموع في عيني بيلان وأوشكت على السقوط.

«تعالي، اجلسي، سألبسه لك لتجربيه» أخذ المسنُّ الطوق من يد بيلان، وضغط على القفل الموجود في منتصفه ثم وضعه على عنقها، فسمع صوت تكة بعدها انغلق القفل خلف رقبة بيلان.

«إنه ضيق قليلاً».

«إذن فلتشديه قليلاً وسيتسع».

فرفعت بيلان يدها وشدت الطوق؛ لكن ازداد ضيقًا كلما شدَّته.

«يا جدي، أسرع، لقد ازداد ضيقًا».

«إذن فلتشديه ثانية».

فشدته بيلان ثانية؛ لكن يدها سقطت إلى جوارها في ضعف.

«يا جدي، إني لا أستطيع التنفس، أسرع ووسِّعه لي».

«هههههههه» فجأة أطلق المسنُّ ضحكة باردة مخيفة وقال: «هذا هو المراد ألَّا تستطيعي التقاط أنفاسك، لهذا صنعت خصوصًا هذا الشيء الذي يزداد ضيقًا كلما شُدَّه، أيَّتها الحقيرة، اليوم هو ميعاد موتك».

جحظت عينا بيلان في رعب بلا حدود: «جدي.. أنا..».

لكن الطوق الذي يخنقها جعلها عاجزة عن إخراج الكلمات بوضوح، كانت راغبة في كسر الطوق؛ لكن لم تكن لديها القوَّة حتى لرفع يدها، فارتمت على الأرض.

«لقد جئت لأنتقم لولدي، لقد مات بيديك».

«لـ لـ مـ ا ذا».

فركلها المسنُّ في رأسها وهو يصيح «أتسألينني لماذا؟ أيتها المرأة الشريرة».

«دعني.. أُنْجِب..» بدا صوتها كمصباح نضب زيته فانطفأ فجأة، وتشنَّج جسدها في عنف، بعدها سكن تمامًا، وكانت الحركة الأخيرة التي قامت بها قبل أن يتشنَّج جسدها أن مزقت بيدها ملابسها العلوية لتكشف عن بطنها المنتفخة الحامل في الشهر الخامس تقريبًا.

مال المسنُّ بجسده واتكأ على الجدار، وما إن رأى عيني بيلان وقد جحظتا للخارج حتى جذب مزلاج الباب بيد مرتعشة، وسار مترنِّحًا نحو الخارج، ولم يرَ حراس البوابة في ضوء الغسق الخافت الحالة الغريبة التي كان عليها المسنُّ فسمحوا له بالمغادرة. وما إن دخل إلى حانوت فو هينغ حتى قال بشفتين مرتعشتين: «يا ولدي، لقد انتقم لك أبوك». ثم أخرج زجاجة صغيرة من جيبه ورفع رأسه وسكبها بالكامل في فمه، وبعد لحظات تراخى جسده، وقد سالت الدماء من جميع فتحات رأسه.

وفي صباح اليوم التالي دفع زبون جاء لصنع الحُلِيِّ الفضية باب الحانوت، فاكتشف الصائغ المسنَّ ميتًا على فراشه وقد التحف بغطائه، فنادى على الجيران من حوله، وقد قال الجميع: إن المسنَّ لم يتحمَّل الوحدة بعد موت ابنه لذا ذهب بحثًا عنه. وجمع الجميع بعض من المال ودفنوه على عجل.

وبعد ثلاثة أيام ترامت أنباء من بيت السيد لو تقول: إن زوجة ابنه الأكبر بيلان قد تُوُفِّيَت نتيجة لنزيف شديد أثناء ولادة مبكرة، ولقد أقيمت لها جنازة مهيبة حتى إن كثيرًا ممن حضرها ظلُّوا لسنين طويلة بعدها يتحاكون عن ترتيبات تلك الجنازة، ولقد رافق الحاكمُ بنفسه وهو مستندًا على ولده الأكبر داو جينغ التابوتَ حتى المقبرة، ولقد رآه الكثيرون وهو يمسح دموعه التي أفلتت رغمًا عنه. بعدها تحاكى الناس بأن حياة بيلان القصيرة عاشتها كما ينبغي، فقبل موتها تمتَّعت بحياة الثراء، وبعد موتها تنعمت بجنازة مشرفة، وأي امرأة تعيش حتى تصل لتلك المرتبة بالتأكيد ستكون راضية، أليس مصير الإنسان هو الموت إن آجلاً أو عاجلاً؟

بعدها ترامت أخبار أخرى من بيت السيد لو تقول: إن الابن الأكبر داو جينغ أقسم ألَّا يتزوَّج ثانية وفاء لزوجته بيلان، ذلك الخبر هزَّ مشاعر الكثير من النسوة بالمدينة حتى ذرفن الدمع تأثُّرًا. وفي نهاية خريف ذلك العام قام الكثير من النبلاء بالمدينة تأثُّرًا بوجود ابن وفي بارٍّ في بيت السيد لو بإرسال أشخاص ليطلوا كلمة «مينغ ديفو» الموضوعة على بوابة بيت السيد لو بالفضة.

وقرب مساء أحد الأيام من العام الثاني اندلع فجأة شجار حادٌّ في مينغ ديفو، ولم يعرف أحد سببه؛ لكن جيران مينغ ديفو سمعوا لو داو جينغ الذي لم يكن من عادته التحدُّث بصوت عال يتحدَّث بأعلى صوت ويخالط صوته نغمة بكاء، ولقد استمرَّ ذلك الشجار حتى منتصف الليل، وتطاير بعض الكلمات ليصل إلى خارج أسوار البيت: السماء... السمعة... الجينسينغ... العائلة... وفي صباح اليوم التالي، اكتشف أحدهم بجوار قبر بيلان جثة لو داو جينغ المرتدية ملابس نساء، أما

قبر بيلان فقد أحيط من الجهات الأربع بدائرة من الحُلِيِّ النسائية، وكان لو داو جينغ قد وضع في يده ورقة مكتوب عليها بالمداد سطر بكلمات كبيرة: أيتها السماء، لماذا خلقتِ البشر؟

لم ينتبه الحانوتي إلى سقوط تلك الورقة من يد لو داو جينغ المتيبِّسة، كما لم يكتشف أيضًا التقاط شاب صغير يرعى الغنم لها. هذا الشاب الصغير لفَّ الورقة بدافع الفضول ووضعها في أُسْطوانة البامبو التي يحفظ فيها أوراق تبغه، بالطبع لم يتصوَّر وقتها أنه يحفظ بهذا قصة وجزءًا من تاريخ. وبعد عشرات السنين؛ بينما كان يحكي لابن حفيده عن الماضي، أخرج تلك الورقة التي اصفرت من أُسْطوانة البامبو، وعلى الرغم من أن الكلمات الموجودة عليها قد صارت مبهمة، فإن عيني ابن حفيده التمعتا فقد أدرك بالفطرة أن خلف تلك الورقة حكايات مسلية. ومن ثم بدأ في رحلة بحث شاقَّة اتصلت أحيانًا وانقطعت أحيانًا أخرى، وفي النهاية وقف ابن الحفيد فوق تلك الأطلال التي تراكم فوقها ريش الدجاج والورق الممزَّق وبقايا أوراق الخضراوات وغيرها من الأشياء المبعثرة، وهو يفرك بيده تلك الورقة، يفرك بيده ذلك التساؤل الذي كتبه ذلك الشخص منذ أكثر من ثمانين عامًا، وقد ضيّق عينيه ناظرًا إلى طرفي الزمن.

## تمت